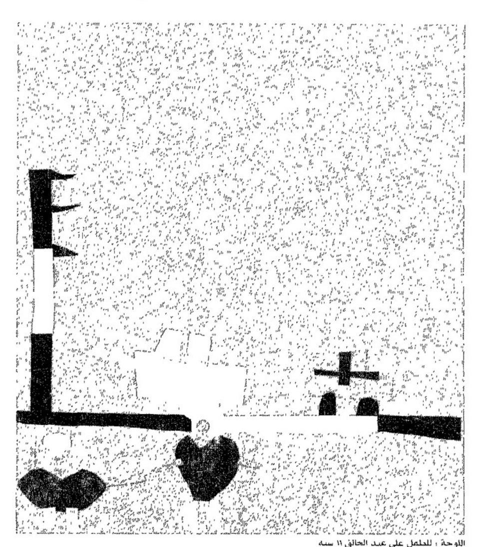


عمل نبيل



اللوحة : للطفل على عبد الخالق ١١ سنة



إدوار الخراط



مختارات

إدوار الخراط

263
أصوات أدبية

أصوات أدبية

سلسلة نصف شهرية

تعنى بنشر الإبداعات المصرية

الهيئة العامة لقصور الثقافة

• عمل نبيل - 263 - - قصص - إدوار الخراط

• الطبعة الأولى - منتصف يونيه 1999

المراسلات

باسم مدير التحرير على العنوان التالى :
١٦ أ ش أمين سامى - القصر العينى
القاهرة - رقم بريدى : ١١٥٦١

رئيس مجلس الإدارة
د. مصطفى الرزاز

المشرف العام على النشر
على أبو شادى

أمين عام النشر
محمد كشيك

الإشراف الفنى
د. محمود عبد العاطى

رئيس التحرير
محمد البساطى

مدير التحرير
شحاته العريان



عمل نبيل

أخذ جابر يسير متئداً، وشمس الغروب فى عينيه، على شاطئ الترعة المترب المزدحم. كان ينقل خطواته فى ملل. وكان شعره مشعثا ملقى إلى الوراء، وقطرات من العرق منعقدة فوق جبهته، مصفرة فى احمرار حائل، وفى عينيه تعب، وفى السماء حرارة مثقلة.

ألقى بنظرة إلى المياه الراكدة تهتز بين المراكب الشراعية، العتيقة، وقد انبسطت أشرعتها المرقعة تتلمس نسمة من الهواء.

ولمح في جوف مركب قريبة جماعة من المراكبية، بأجسامهم القوية السوداء وثيابهم الباهتة المزرقة راكعين أمام موقدة من الفخار ينفخون فيها وهم يطهون عشاءهم، والعدس الأصفر يبدو، وهم يحركونه بمغارفهم الخشبية العتيقة، عجينة كثيفة تضرب إلى لون الغراء، كأنهم يفيدون منه فى شد ألواح مركبهم القديمة بعضها

إلى بعض، حتى تستمد مهلة أخرى للحياة:

ومضى فى طريقه تحت أشجار الجميز الضخمة التي تظلله كما لو كانت عالما منعزلا بذاته من الأغصان الملتفة الورق، والعصافير تتواثب فى أرجاء هذا العالم باضطراب، تودع النهار بزقزقة عالية حادة النغم، وقد شرد ذهنه رويدا وهو يسير فى الحرارة الخانقة التى تسبق طراوة الغروب مباشرة، وعاد مرة أخرى إلى القهوة المعتمة المزدحمة التى تطل على الترعة، تتدلى من بابها زرعة صغيرة صفراء من اللبلاب، مهملة وجافة تناضل فى سبيل الحياة باستماتة. كان ينتظر دقة الجرس الأخيرة فى مدرسته، بصدر واسع رحب، بصبر جميل. جميل. فإذا انتهت الحصة الأخيرة وأطلق سراحه، اندفع هو ورفيق أو أكثر، خلال الطرق الضيقة، يثيرون التراب بين المنازل التي تتظاهر، من غير كبير نجاح، أنها أنيقة كمنازل الحضر، حتى إذا ما وقع بصره من بعيد على اللبلابة الجافة الصفراء، وعرف جمعاً من صحابه فى القهوة صاح بأعلى صوته:

– يا عم متولى هات لنا طاولة اعمل معروف، طاولة بسرعة وحياتك.

ويذهب إلى ركنه المعهود، أكثر أركان البؤرة، عتمة وبعدا عن العيون، حيث يجثم الراديو الضخم، أسيراً بجانب مواقد الجاز التى تزأر وتفح فى إعداد الطلبات للزبائن.

كان يسير على الترعة وهو يعيش فى هذا الحلم اليومى مرة أخرى، حلمه السوقى المبتذل الذى يخلّص حياته. فرأى نفسه وقد ألقى بكتبه التعسة إلى أقرب كرسى، ورفع الراديو إلى أقصى ما يبلغ صوته من ارتفاع، وراح يلعب الطاولة فى حماس لن يفتر، يلعب، وقد ابتدأ يغيب فى غيمة غامضة مريحة من وهج الحرارة وسحب الدخان المنعقد المتصاعد من جماعات الفلاحين والأفندية، وقهقهات عم متولى المليئة وصياح الراديو وأقراص الطاولة تصطفق وتقرقع، وصوت باخرة صغيرة في الترعة تطلق صفارتها الحادة فجأة فتصخ الأذن وتترك خلفها طنينا هادراً يئز مع المواقد ويعوى مع

المذياع ويقرقر مع نرجيلة قريبة ثم يقهقه ويبصق مل‍ـ
الفم ويقسم بأغلظ الأيمان.

وإذا هو يندمج مع القهوة. كلها فى كيان واحد داكن حار، وينسى المدرسة وسخفها وفراغ حياته وجمودها. وتضيع حواسه فى غيبوبة من العتمة والسخونة والصخب، وتتسل منه نفسه فى خدر ضاغط مؤلم لذيذ ومعربد، يستغرقه ويلاشيه.

– خالى جابر، خالى جابر.

فى صيحة حادة نزقة.

وقف فجأة ودفع رأسه إلى الوراء فى حركة مباغتة، وقد انتزع من حلمه على غرة، كما لو كان قد هجم عليه طارق مفاجئ. وانتبه ينظر إلى ابن أخته الصغير، فلفل.. وهو يناديه خارجا من بيت قديم حائل اللون، من تحت السماء الموحشة بالغسق.

طفل ضئيل ناحل، يرتدى جلابيته الواحدة التي كانت تفاخر فى يوم من الأيام بأنها بيضاء ناصعة، أما الآن فعسير أن تحدد لها لوناً على وجه الدقة، أهى رمادية

مغبرة نوعا ما، أم هى تميل إلى شىء من الزرقة الكامدة، أو لعلها أن تكون رصاصية باهتة قذرة، من آثار وحل لم يشأ أن يزول، أو بقع زيت منسكب، أو ذكريات شاى أسود، أو بقايا دماء حائلة من جرح قديم؟ أم هى مزيج معجز فى اللون من ذلك كله، وغير ذلك كله؟ عسير عليك أن تحدد، على وجه الدقة.

طفل مستوفز نشيط يبدو فى عينيه الواسعتين، على الرغم من التراب والذباب، نوع من ذكاء شقى متقد.

– خالى جابر، اعمل لى مركب وياالله بينا نعوّمها فى الترعة، ياالله بينا هنا كويس، لأقدّام شويه أحسن، ياالله هه مد شوية.

وهو يشد طرف جاكتته فى إلحاح يغريه أن ينزلا معا، كما اعتادا ان يفعلا فى بعض الأصائل، إلى الشاطئ المنحدر، يختاران لهما مجلسا على العشب الأخضر الوافر، ثم يرمى جابر حمله المدرسى إلى جانب، وقد انتقى منه كراسة يقتطع منها كمية كريمة من الورق تستحيل تواً إلى أسطول يغزو مياه الشاطيء الضحلة

الموحلة، مركبا ورقياً بعد مركب تتقدم مع الأمواج الصغيرة المهتزة، تميل وتطفو وتغوص وتجاهد الماء حتى تنقلب أخيرا وتمتلئ فتنفرد فى الماء، وتعود قطعا مبللة مهيضة من الورق. وهما يصيحان ويهتفان ويضحكان، يديران حركات أسطولهما ومناوراته فى الأصيل الساكن الهادئ.

وكان الطريق متربا وقفرا فى هذه البقعة، وقد امتلأ بالشمس ونسمة العصر.

– لا يا فلفل معلهش النهارده، أنا تعبان شوية، بكره بقى.

ولكن فلفل يتذمر فى كلمات متداغمة طب مركب واحدة ولا اتنين بس، شوية صغيرة يعنى إيه، وكان جابر يحس إرهاقا مثقلا ومازال بينه والبيت شقة، فاستند إلى جذع جميزة ضخمة جافة منسية لم يبق لها إلا الجسم اليابس المكسور العتيق.

– لا يا فلفل بلاش النهارده قلت لك، أنا تعبان جدا من المدرسة ودروس المدرسة وقرف المدرسة، إسمع بكره

مش حاعملك مركب واحدة ولا اتنين حنعمل مع بعض مراكب كتير، كتير.. مالهاش آخر.

كانت هناك صداقة بسيطة تربط بينهما، ألفة وتفاهم مستتب لا تعبر عنه الكلمات، كعناق أخوى. لأن كليهما يشعر، دون أن يدرك تماما، بالغربة عينها فى بيئة معادية، كلاهما ضائع.

وكانت الشمس تنحدر وراء أشرعة المراكب المتزاحمة التي تبدو من بعيد كأجنحة سوداء فى حمرة الأفق والأمواج الصغيرة تصطفق بأخشاب المراكب، والنوتية يعدون عشاءهم فيتصاعد بخاره الأبيض من القدور القديمة المستديرة، والبهائم على الطريق، تعود فى صفوف طويلة، محنية رؤوسها، تخور إحداها فجأة خوارا طويلا متعبا، كأن فيه شكاة، وأصحابها يتبعونها بلا اهتمام، فى سحابة من التراب، تنسكب عليهم موسيقى نزقة مرحة من العصافير المشقشقة بين هامات الشجر.

ونظر جابر إلى الصف الطويل من الأوكار الريفية التي يسميها أصحابها، بحسن نية. منازل. تلك البؤر

المتداعية ذات الطلاء المتساقط والشرفات الخشبية المعوجة والأبواب الفاغرة، تبدو فى العتمة الداخلية كأنها تغوص قليلا قليلا فى تراب الطريق، يدوسها الغَسَق.

ووقف عند بيت أخته، وبدا له فى الضوء الخابى من فتحة الباب، حصير وأدوات منزلية غامضة المعالم ركنت إلى الحائط، وماعز مربوطة إلى وتد فى الفناء. ودجاج يروح ويغدو بين أقدامها يلتقط من الأرض، على أشعة النهار الأخيرة، ما يجد من طعام، وينق لأنه لا يجد شيئاً، ولأن الظلمة قادمة.

وارتفع بصره إلى الجدار الخارجى، بطلائه الأصفر القديم، وسور السطح المائل المتداعى، والنوافذ المسدودة بالخشب الخام. فتكوم فى نفسه السخط والضيق والغضب، وارتفع، وانفجر فى داخله كما ينفجر لهب مكتوم.

– هذه الزرائب تعيش الناس فيها؟

– إيه يا خالى بتقول ليه؟

رأى عينين واسعتين عميقتين تطلان بتساؤل فى عينيه،

عينين يتوقد فيهما ذكاء شقى حاد، سوف يتثلم حده، وعمق سوف يضمحل، ويتوقد فيهما مع ذلك شعاع غامض من حزن وإدراك.

من يدرى؟ قد يتحول هذا الشعاع إلى لهيب كبير يغذو محرقة، ويلتهم هذه الزرائب وماوراءها فى ألسنة النار، لهب قد يخمد ويختنق بين الرماد والحطام، وقد.. قد تثب منه النار قوية فتية. أو تطفئها دموع العجز، والانسحاق وقطرات العرق الباردة المتربة تسقط من جبين كليل.

لكن ماذا يهم كل ذلك الآن. طال به الوقت منذ ترك القهوة، وعليه أن يذهب يتعشى سريعا ويكمل عشرة طاولة، وسوف يمر فى الغد على فلفل، يصنعان مراكب من ورق.

– لا مفيش حاجة يا فلفل. ما فيش حاجة. إبقى استنانى بكره العصر، هنا برضه. وأكد له الضوء المتألق فى عينى الطفل أنه ليس فى حاجة إلى من يذكره. وأنه لن ينسى في الغد.

انحدر فى الزقاق الضيق، واصطدمت قدمه عفوا

بكومة السباخ وأفلت كتكوت من تحت حذائه بمعجزة لكى ينضم إلى قبضة من الكتاكيت تنقّ وتتنادى وتجرى فى عقب النهار، ونفذت إليه أصوات عراك، بقية عراك الأمس، بين محضر المحكمة وزوجته السليطة.

وصعد إلى منزل أبيه عتبة رخامية متآكلة مدفونة فى تراب الشارع. وترك الباب مفتوحا ليجلب قليلا من الضوء وقليلا من الهواء.

وألقى نظرة غريبة إلى داخل المنزل، يتأمله كمن يراه لأول مرة. هذا البيت الذى وُلد فيه وعاش تلك العشرين عاما من حياته، وقف فى الغَسَق يحدق كغريب. ورأى السلم الصاعد إلى الدور العلوى، بدرجاته المكسوّة بطبقة من التراب المتحجّر الجاف، وحوض المياه الجديد تحت السلم وأوانى للطبخ مهملة تحت الحوض، وماءت قطة كانت تتسلل تحت الحوض إذ سقطت على رأسها قطرات من الماء.

ووقفت عيناه على الباب المقفل دون شقة عبد الجاوى، البقال الذى يستأجر الطابق الأسفل كله، فيما عدا حجرة

جابر، يساعد أباه بهذا الإيجار على العيش.

كان أبوه مزارعا فى عزبة البيه، وأفق آماله الذهبى يحيط بولده جابر، إذ يتخرج من مدرسته ويصبح هو الآخر ناظرا، أو مهندسا، أو صاحب عزبة، لم لا؟ ليس على الله شىء ببعيد.

ولم يستطع جابر، فى وقفته الغريبة بالباب، أن يحوّل بصره عن أرض البهو الصغيرة القذرة والبلاط المتكسّر تنبثق من شقوقه حشائش صغيرة، وروث بهيمة لعلها مرت فى طريقها إلى الزريبة بالفناء الداخلى، وفضلات دجاج تحيط بالبركة الطينية الصغيرة المتخلفة عن ماء الحوض فوق البلاط.

وانفتح الباب فجأة، وخرجت منه نجيبة، زوجة عبد الجاوى، وفى يدها آنية نحاسية تمسح عنها إلى الأرض بقايا طعام، بلا اكتراث، لكى يلتقطه الدجاج.

وباغتته وهو ينظر إلى الأرض، وعلى وجهه تعبير ممض. ونظرت إليه بدهشة، فتدارك قائلا :

– سعيده يا نجية.

– سعيدة يا خويا، واقف كده ليه، فيه حاجة؟ مالك، عيان ولا إيه؟

– لا أبدا، بس أصلى، أصلى تعبان شويه، من الحر. أصل الدنيا حر النهارده.

واستطاع أن ينقذ نفسه أخيراً، بعد تلعثم، بهذه الكذبة. وابتسمت، وقالت كلاما تقصد به النصح، أو لعله ترفيه، أو كلام عن الجو أو شىء من هذا القبيل، ثم ذهبت إلى الحوض وفتحت الصنبور اللامع الجديد، تغسل آنيتها، وتمهل يرقبها لحظة، لمحة بصر.

لم تكن جميلة. وكانت تكبره فى السن قليلا، لكنها كانت عذبة ووهج الشباب يشع عليها نوعا خاصامن السحر، أخاذا. وعيناها كل شىء فيها، عميقتان، مصريتان، فيهما حساسية وذكاء وعطف. ولهما لونهما الخاص الرائع. لون مياه النيل فى بقعة صافية، عند الفيضان، مزيج من السماء والطمى والعسل. وكانت ذراعاها عاريتين وقطرات من مياه الصنبور تسقط على

ساعديها وتتعلق بمرفقها الأبيض. وعيناها فيهما نظرة حانية، لأنها بعيدة ومقهورة، حائرة ولا تقع على شيء. لكنه لم يكن يولى نجية كبير اهتمام. لم تكن تسترعى انتباهه.

ودخل غرفته وأقفل بابه وأوقد مصباح الجاز على مائدة كتبه. وأخذ المصباح يشيع فى الغرفة نوعا من الضباب المنير القاتم، بين الصفرة والحمرة الشاحبة، وفى هذه السحابة من أزيز المصباح وهو يتقد فى أذنه جلس على مقعده، وألقى برأسه بين يديه وأخذ يتحسس جمجمته المصدعة. رأسه يكاد ينفجر. أمريض هو؟ كما تساءلت نجية؟ أم الحرارة حقا هى التى تنال من كيانه كله؟ وهى التى فتحت فى نفسه ببطء أبوابا ثقيلة وشاهقة عن آفاق شاسعة خواء، كأنها أبواب المدن النحاسية فى ألف ليلة؟ أذاك مرض أم طارئ جديد غامض. ذلك الذى اندس بين عظامه أخيرا يبث له السم فى كل شيء، يجرعه مرارة ويصهر أيامه فى حمى بطيئة خامدة. حمى السأم والاستياء الذى لا سبب له، حمى التطلع بعيون

دفينة محرومة إلى ذاك الذى لا يمكن الحصول عليه.

– مرض أو عفريت. ماذا يعنيه الآن من ذلك كله. لا أهمية لشىء ما.. لأى شىء.

وبالطبع كان ذلك كله يعنيه بل يهمه. ولكن ما بوسعه أن يفعل؟

لايزال قبل العشاء ساعة أو أكثر، وليس أمامه ما يقتل به هذا الوقت.

رفع فتيلة المصباح وترك البترول فى جوفه يئز ويتقد، وفتح كتابا – بعد اختيار دقيق – من كتبه المدرسية. وأقنع نفسه بأنه يقرأ ثم أفاق بعد لحظة فإذا به يقلب الصفحات الواحدة تلو الأخرى، دون أن يدرى وفى ذهنه ضباب لزج.

– كم هو بائس، بائس وتعس. ما جدوى حياته؟ ما قيمة هذا الوجود السمج التافه. بلا طعم، ولا معنى؟

واختلطت الأشياء أمامه، وصعد إلى عينيه غيام يرتفع عن ينبوع دمع متحجّر، لا يريد أن ينبجس.

وانطلقت من فمه ضحكة مُرة، هى حشرجة قصيرة

تشبه الضحك.

- أهو مشفق على نفسه إذن؟ يبكي؟ يربت على نفسه ويمسح كتفيها، وينوح على حظها التعس، كما يفعل المرء مع قطة هرمة مريضة؟

وضحك مرة أخرى من نفسه، في سخرية كالعلقم، يرثي لنفسه.. هه.

ورن في أذنه صوت حريري ناعم، أوه. مِرْسي. أشكرك.

فرفع رأسه في حركة سريعة وارتسم على شفتيه شبح ابتسامة آملة خائفة، وتألق في عينيه ضوء بعيد. لكنه لم ير شيئاً هناك. لم ير سريره المزوي في ركن، ولا الصور القديمة التي سوّدت جوانبها خيوط الذباب المعلق الراقد في الليل، ولا مائدة كتبه تسبح في ذلك الضباب الشفاف من مصباح الجاز، بل انفتح أمامه أفق مشرق يانع في صباح حار. والطريق الزراعي يفضي إلى العزبة. وهو وأبوه وخفير العزبة وجمع من الفلاحين يسرعون لاستقبال سيارة سوداء فخمة كانت قد انشق عنها الأفق، وهي

تقبل مارقة فى سرعة متهورة، وقد كادت أن تنقلب فى الترعة وهى تتحاشى جاموسة مهرولة ثم أفلتت، وهى على حافة الترعة، بأعجوبة، وانطلقت على سرعتها تصفر وتثير التراب، حتى وقفت فجأة، بعنف. حيال جرن العزبة.

كانت تلك بنت البيه، أقبلت بلا شك من مصر فى سرعتها تلك المتهوسة. وكان واضحا أن هماً عاجلا يثقل صدرها الأنيق الرقيق، وان شيئاً مُلحا حيويا ينتظرها فى القاهرة، كانت تنظر إلى ساعتها بسرعة وقلق، وأنفاسها تتابع، وهى تتطلع من نافذة السيارة فى نفاد صبر. فتاة نحيفة ممشوقة، لها نوع من الفتنة المترفة، بعينيها الزرقاوين وشعرها الذهبى المجموع فى عقصة باهرة.

واكتسحت جمع الفلاحين بنظرة واحدة، بلا مبالاة، واستقرت العيناوان الزرقاوان على أبيه وهو معرفة قديمة، وبادرته فى لهفة، قبل أن يجد الفرصة ليلفظ كلمة ترحيب واحدة.

– بابا هنا يا عم حنفى؟

وأخذ العجوز الطيب القلب قليلا، لا تحية ولا سلام، ثم

أجاب سيدته الصغيرة أن نعم. البيه في السراية، وأننا جميعا فى غاية السرور لرؤيتها.. وأن.. وكيف صحة الآنسة.. ولعلها بخير؟

ونظرت إليه لحظة من داخل السيارة، فى تفكير شارد، ومن الجليّ أنها لم تسمع شيئاً بعد كلمة نعم. ثم بدا لها، فتذكرت انها لم تحى الرجل بعد، فابتسمت وسألته عن صحته؟

وفتحت حقيبة يدها على الفور، قبل أن تكمل جملتها، والتقطت منها قلما، وبحثت عن شىء، ثم أخرجت رسالة زرقاء القت عليها نظرة واقتطعت من آخرها، على جنب، طرفا من الورق. وراحت تعبث بقلمها فى زجاج النافذة، فى سهوم، بينما الجمع ينهال بوابل من التحيات المضطربة والتمنيات المؤدبة يختلط بعضها ببعض.

وفتحت باب السيارة فجأة، ثم قفزت إلى الأرض فى حركة نزقة، وفى يدها القلم وقطعة الورق، وأحدثت سرعة حركاتها تلك نوعا من الصمت المفاجئ. وراحت تدور فى الجمع بنظرة باحثة، فعبرت بنظرها حشد الأطفال

المحدقين إليها بعيون حمراء، يتعلقون بثياب أمهاتهم في خوف وتطلع، وجمع الفلاحات المخفيات أسفل الوجه بالطرح السود، والفلاحين المبتسمين عن آخر نواجذهم في تطلع خشن، وأباه الفائض بعبارات الترحيب. ثم استقرت عيناها عليه أخيرا - هو - لحظة أو لحظتين، في نظرة متسائلة، كمن يجد في جمع مألوف من الحيوان، حيوانا غريبا جديدا.

واتجهت إليه في حدة، وسألته بغتة: هل يعرف القراءة والكتابة؟

وبهت ولم يستطع إلا أن يجيب بنعم هزيلة خافتة من أقصى حلق جاف.

وقد عجب لنفسه بعد ذلك. نعم؟ أهذا كل شيء؟ ألم يستطع أن يقذف في وجهها بعبارة حاسمة نافذة. تسأله أيعرف القراءة والكتابة؟ هو. بكل ثقافته وقراءاته؟ لقد أعد لنفسه بعد ذلك ألف نوع من الإجابة الساخرة والبارعة والرائعة والمستهترة. أتته في وحدته حينما كان الموقف يتمثل له، مرات بغير عد، وفي كل مرة إجابة جديدة

نفاذة، حادة كطعنة أو رقيقة كقبلة. أو متعالية. لكنه فى المرة الحقيقية الأولى لم يستطع إلا أن يجيب نعم هزيلة مبحوحة خافتة، كأى جلف فلاح.

وأعطته القلم والورق، وطلبت منه أن يكتب لها وهى تمليه قائمة مصروفات.

واتضح السر، إذن فهى قادمة من مصر تطلب من البيه والدها كمية أخرى من النقود، ثروة صغيرة بلاشك، متذرعة بقائمة المصروفات، كأنها لم تكن تستطيع صبرا. ولم يكن لديه ما يُسند إليه الورق ليكتب عليه. فاحمر وجهه واضطرب وتفصدت على جبهته بسرعة قطرات من العرق ووقع بصره على نافذة السيارة الزجاجية فأسرع يسند إليها الورق.

وأخذت تملى عليه وهى تفكر، قائمة نفقاتها الأسطورية. أرقام ضخمة مزعجة. لكنه لم ينزعج ولم تأخذه المفاجأة. كان يقرأ المجلات ويعرف أرستقراطيات «المجتمع» كان فتى عصريا وأسماء النوادى والمحلات الكبرى فى مصر لم تكن لتدهشه. فهو يعرفها جد

المعرفة. قرأ عنها بإلحاح ويحلم بها.

ونظرت إليه فى دهشة خفيفة مستغربة، فلم يرفع إليها بصره، فى تساؤل وارتباك، كما كانت تنتظر، كأنما كان على خبرة بما تملى عليه.

استعاد هدوءه، وثقته وهو يكتب، وبدا وجهه منعكسا، على زجاج النافذة، شاحبا مكبوحا كمن يعانى ضغطا جسمانيا، ثم لمح فى طرف الورقة الزرقاء، على الوجه الآخر، خطوطا من كتابة سريعة أظهرها الزجاج الشفاف. ولكنه لم يستطع أن يقلب الورقة بالطبع، ولم يستطع أن يميز الكتابة، وقد حفزه فضول لا يقاوم، فراح يحاول قراءة الكلمات المقلوبة، من على الزجاج، وهو يكتب فى الوقت نفسه، وركز جانب بصره فى هذا الركن.

وسطعت الكلمات لذهنه فجأة، من خلف الورقة المقطوعة - الماضية وألف قبله - ثم بداية إمضاء مضطرب منقطع.

هبط قلبه دفعة واحدة ثم اندفعت الدماء إلى وجهه فى نبضات سريعة قوية، وقد اشرقت الكلمات أمام عينيه،

بكل معانيها، بكل حيويتها.

- وألف قبلة.

ترى ممن جاءتها الرسالة؟ وما قصتها؟ إنه - هو - في حياته كلها لم يكتب لفتاة. ولم يرسل قبلات لأحد.

وانتبه إليها يسألها فى شرود: نعم؟

كانت تقول له شيئاً لم يسمعه. ورددت فى ضيق عصبى، إذ لم تلحظ انه قرأ الكلمات الأخيرة من رسالتها، تسأله أن يجمع لها القائمة. لم يكن لديها وقت أن تجمعها من قبل.

- شوف لى المجموع.

ثم صمتت لحظة. وتذكرت أن تقول بأدب. خيل إليه أن فيه سخرية خفيفة:

- من فضلك؟

وأخذ يتمتم ويمر بالقلم على الأرقام الكبيرة، وقد عاوده اضطرابه، فساعده أبوه في المهمة الشاقة، وتمت العملية المجيدة فى النهاية، ومد لها بالقائمة يدا خجلة ترتعش، لا تتقدم ولا تملك أن تتراجع. واختطفت منه

الورقة، ومرت ببصرها على القائمة وهى عاقدة حاجبيها الرقيقين، مقطبة فى اهتمام، ثم تحولت إلى حيث أقبل الناظر يسبقها إلى والدها البيه، فأفسح لها الفلاحون الطريق.

ونظرت خلفها بلا هتمام فرأته بنظر إليها كمن ينتظر منها شيئا، وشرد بصرها لحظة ورن الصوت الناعم الحريرى:

– أوه. مِرْسى. أشكرك.

وابتسمت ابتسامة حلوة. ومضت.

وأسرع خلفها الفلاحون، مدفوعين بفضول غير مفهوم، وهرول أبوه في الركاب، واستمر الناظر يرحب بسيدته فى وقار وجد.

لكنه هو ظل فى مكانه أمام السيارة يحدق فى الفرا غ، ويقطب ويبتسم لنفسه، ويلمس زجاج النافذة بأصابعه دون أن يدرى، ويبتسم ويقطب مرة أخرى.

وبعد فترة من الزمن، عادت إلى سيارتها، بخطواتها الرشيقة المتلاحقة، وألقت عليه نظرة متسائلة لا مبالية.

تماما لو كانت تنظر إلى الغفير، أو إلى جاموسة عابرة، أو كلب العزبة أو شجرة فى الطريق. نظرة بلا مضمون، بلا اكتراث، دون أن تعطيها تفكير لحظة واحدة.

ثم انطلقت السيارة الفخمة السوداء، تصفر فى سرعة وتثير خلفها سحابة من التراب.

كان يسمع صوتا منغوما يتكلم من بعيد، من وراء ضباب.. الماضية. وألف قبلة. وبدا له الصوت مألوفا والحديث مفهوما، سياق الكلام مطمئن طبيعى. تلك الذكريات. الأيام. المرات الماضية. وألف قبلة. لكنه لا يستطيع أن يتذكر تماما.

– مالك يا جابر. انت عيان ولا إيه. أوه. مِرّسى. أشكرك. وصوت أبيه. آه صوت أبيه يتكلم. ولكنه يقول كلاما طويلا بنغمة مصقولة مرحبة. كيف صحة الآنسة؟ ولعلها بخير؟ والراديو يصرخ ويعوى ومواقد الجاز تئز. لشد ما كانت المواقد الحارة تئز.

– شيش بيش. جهار. دوبيا. شوف لى المجموع من فضلك؟

وقهقهة وبصقة تنطلق ملء الفم. وصفير حاد من باخرة فى الترعة. اعمل لى مركب ورق. معلش واحدة بس ولا اثنين.. وهو يحدق فى ضباب بارد. فى بخار أبيض يتصاعد من بعيد من قدر العدس. وكتكوت يجرى وهو يصوصو، ليصطدم بكومة من السباخ، لكنه يغوص فى داخلها كأنما تتحلقه وتطويه فى ترابها. وهو لا يندهش، كأنه قضى عمره يرى أكوام السباخ تلتقم الكتاكيت الهاربة. وقطرات الماء تتساقط على ذراع غضة عارية، بيضاء فى ظلمة الغَسَق، وتسقط من طرف الكوع الناعم، وهناك عينان تطلان بتساؤل فى عينيه. وكان مهموما يسائل نفسه فى قلق وحنق، لأنه لا يعرف، عينا من هما؟ عينا فلفل؟ نجية؟ أم - عيناها؟ أيه غباوة. إن عينيها زرقاوان إنه ليذكر ذلك جيدا. وليستا فى هذه السعة والرحابة. بل زرقاوان فيهما نظرة ضيقة لامبالية.

والعينان تلوحان فى إصرار من خلال سحب الدخان. وتحدقان إليه من مياه الترعة الحمراء التى تصطفق بين خشب المراكب. وسحابة من الغبار تثور خلف السيارة فى

طريق مشمس مترب. والحرارة خانقة فى الضباب. والعينان تتسعان، تتسعان أيضاً. حتى يسود الظلام. وحرارة المواقد وهى تفح.

وعندما نادوه للعشاء، ولم يجبهم أحد فتحوا باب غرفته فإذا مصباح الجاز اخذت فتيلته ترتعش وتدخن وترسل لهبا عاليا محمرا ثم تنخفض بسرعة وتتتابع فى نوبات متعاقبة مجتضرة.

كان نائما على مائدة كتبه، ورأسه على كتاب مفتوح، وشعره يكاد يشيط من المصباح القريب. حرارة متقبضة، وضباب مرتعش من العرق البارد على جبهته، وأصوات تتنادى. وفتح عينيه وراح يحملق أولا فى تبلد، بين النوم واليقظة. ثم فهم، فأجاب فى ضيق وكسل:

– حاضر. جاى أهه.

وصعد إلى الدور العلوى ليتعشى مع عائلته، يؤدى ضريبته.

كان مضطجعا، نصف قاعد، على سريره الحديدى القديم، وهو ينظر إلى النافذة المقفلة التى يشع عنها فى

الغرفة ضوء شاحب مشبع برائحة السباخ الحريفة الجافة. وكانت الشمس تسطع على خشب النافذة من الخارج. تصليه حرارة. وتلقى من خلاله على أرض الغرفة خيوطا مستقيمة متجاورة يسبح فيها الغبار الدقيق. والغرفة المقفلة تبدو مفعمة بنوع من النور، غريب شفاف، يعطى للمكان رحابة وسكونا مرهفا، كأنه صومعة مقفرة صحراوية، معلقة النَفَس.

لم يكن يحب أن يدع النافذة أو الباب مفتوحا، عادة مستحكمة، أن يحيط نفسه دائما، طالما كان ذلك ممكنا، بجوٍ محكم وثيق. ويحس نفسه تتشتت منه ما لم يحكم سدها.

وتقلّب على سريره إلى جنب. ومرت أصابعه بشعره فى عنف ضيّق، وضم رجليه إلى صدره، كالجنين يتململ فى رحم أمه، فالحجرة حارة مبهورة، بل هى تنهج وتشرئب بالنَفَس. ولا جدوى من فتح النافذة فى شمس الظهر هذه.

يوم الجمعة، ينتظره طول الأسبوع فى صبر نافد، ثم

يضيق به إذا جاء، كأنه عذاب لا يعرف المفر منه.

وسمع وقع أقدام تقترب من غرفته، وتقف بالباب هنيهة، كأنها تتردد. ودهش قليلا، ثم رأى الباب ينفتح فجأة، فى عزم وحدة ترتفع بلا قصد إلى حد العنف، فاعتدل فى جلسته، وزادت حرارة الغرفة بما ملأها من هواء ساخن مترب، فهز رأسه كأنما يزيحه عنه. وابتسم ابتسامة باهتة.

وقفت نجية قليلا ويدها على مقبض الباب، وكان فى مظهرها ثم شيء غريب جعله يعتدل تماما فى جلسته، ويحدق إليها.

كانت تأتيه كثيرا فى غرفته. تطلب إليه شيئاً أو آخر من الحاجات المنزلية الصغيرة. فقد كان يحب أن يعيش فى غرفته تلك منفردا عن عائلته أو يكاد، يكفى حاجاته بنفسه بقدر ما يستطيع. كانت تطلب منه أحيانا قليلا من الجاز أو الشاى، أو إبرة وابور أو صحيفة قديمة. لكنها الآن تبدو غريبة، كأنما يحيطها وهج منبعث عن مصدر خفى. وفى وقفتها بالباب تبدو كتمثال يفور بحزن مكبوت

جامد، بلا صوت. وتذكّر دفعة واحدة تلك المناقشة الحادة. التى دارت بالأمس فسمعها من خلال جدار غرفته، بعد العشاء، وأذلها فيها زوجها، ودفعها فى النهاية إلى البكاء، ملتاعة تخافت بدمعها، كذلك كانت تنتهى مناقشاتهما عادة.

كانت حياتها الزوجية مأساة قديمة مبتذلة متكررة. زُوجت فى السادسة عشرة من نجار لم تكن تعرفه أو تحبه، وجاءته بولد علّمها كيف تعرف، وكيف تحب، وابتدأت تذوق طعما للحياة. ولكن الطفل مرض. مرض ومات فى آخر الأمر، فى ظهر حار. فى مثل هذا الظهر. وخيل لزوجها الأول، بصورة لا تفسير لها. أنها هى التى أفقدته طفله، وعندئذ انسلت في حياتهما امرأة أفعوان، زوجة أخرى. نَصَف، داهية. وبعد شهور من الذل طلّقها النجار، وعادت تعيش مع أبويها الفقيرين. ولم تكن بمقدورها أن تستمر عالة عليهما، فرضيت بزوجها الثانى، هذا العبد الجاوى. وكان ناجحا فى نوع عمله، ومن خير ما يوجد فى السوق لهذه السلعة التى هى جسد الشابة

المطلقة. كان الرجل يعيش فى عالمه الضيق من الحواس الخشنة، عمل وامرأة وطعام. وهو أيضاً نصف عمر، طلق امرأته الأولى لأنها لم تنجب له ولدا، وهو يشتهى الولد. رأى لداته يذكرون أبناءهم، فى حفظ الله فى نغمة هادئة من الرضى، ويعوّذونهم من العين بالخميسة الزرقاء من الخرز. فاشتهى أيضاً أن يكون له النسل يستكمل به حياته.

وهاقد مضت سنتان أو ثلاثة منذ تزوج للمرة الثانية. ولم تعطه نجية بعد ولدا. وكان من الواضح أن الرجل عقيم، لكنه لم يكن ليخطر له ذلك على بال. لم يكن ليريد أن يفهم ذلك. فزوجاته هن المسئولات بلاشك، وهو عند اتفه نزاع، يهددها فى بساطة، ان يسرحها، أو على القليل يستجلب له امرأة أخرى، ضرة لها. تخلف له.

وفى ليلة الأمس كاد عبد الجاوى يلفظ بكلمة الطلاق، كاد أن يقصى عليها. ومثل لها مستقبلها، مطلقة للمرة الثانية، وقد جاوزت شبابها الأول. من يرضى بها عندئذ إلاّ حشّاش، ربما، أو عربجى، ثم يطلّقها بدوره، لتستحيل

بعد ذلك إلى عاهرة شرعية، تبيع جسدها بالتتالى، فى الحلال، لمن يدفع الثمن التافه، طعامها ومأواها لبضعة أشهر؟ على أن لها بالطبع أن تبقى بلا زواج إذا شاءت، بلا طعام تقريبا. أو... هذا المصير المظلم كله.

لذلك كانت تتعلق فى يأس بشقائها الراهن وبزوجها الجافى، لذلك بكت.

وأدركت أنه يفكر - معها - فى ليلة الأمس. وكانت منفعلة ولمعت فى عينيها دمعة مرارة، على أنها استطاعت أن تبتسم.

كانت واقفة بالباب، ممسكة بمقبضه، والنور المبهم المعلق فى الغرفة كأنه يدعوها، وثم حنان غامض ينبعث من حرارة المكان، وكانت ترتدى ثوبا قصيرا من نسيج خفيف، يتفجر تحته لحمها الممتلئ بالشباب، وشعرها الناعم ينسدل فى خصلات سوداء غير منتظمة، ووجهها غض مضىء بنور داخلى لماح. وعيناها، عيناها، العميقتان بلون النيل الطامى، ذلك المزيج من ضوء السماء ومياه الفيضان وعمق غريب آخر. عيناها

الحزينتان العطوفتان. وصدرها يبدو زاكيا متمردا على فتحته، يرتفع ويهبط كموجة آتية على جسر النهر، من بعيد.. وحاولت أن تبتسم أيضاً، لكنها كانت ابتسامة شيء محتضر يقوم بجهد أخير. ابتسامة واهنة متهافتة.

وتدافعت إلى وجهه الدماء، ثم فرت منه بعد لحظة، وتركته شاحبا يتنفس بمشقة. لم تكن قد وقفت بالباب أكثر من لحظة، ويخيل إليه أنه يراها هناك منذ الأزل، كان كل شيء يجرى فى نطاق المألوف العادى، لكنه يلوح فى مستوى غامض صوفى كأنه حلم من أحلام التخلق الأولى.

تقدمت إليه، كالعادة، تطلب منه علبة كبريت، وحاول كلاهما أن ينسى تلك اللحظة المشحونة. فأخذ يبحث فى جيبه وهو يسألها مازحا عن معركة الأمس. لماذا تهيج الرجل الطيب إلى ذلك الحد؟ وتجعله يصرخ فى الليل، كدب جائع، وأجابته بشيء تافه وهى تضحك، ثم سألته، كالطفل، عما هو الدب؟ كأنها لا تعرف.. وأخذ يشرح لها، مغتبطا بسعة علمه، كيف أن الدب حيوان ضخم خطر

يعيش فى البلاد الباردة البعيدة، ويشبه - يشبه ماذا؟ يشبه الفأر السمين حين يكبر ويكبر حتى يصبح أكبر من الجاموسة.

وترددت ضحكاتهما المتهافتة الضحلة. وتلامست يداهما وهو يعطيها علبة الكبريت. كان من العبث أن يتجاهلا ذلك الشيء القائم بينهما. كانت الدماء تضرب فى شرايينهما معا، كرصاص مصهور.

وكانت الحرارة تخدر حواسهما، والنور الغامض يدعوهما وأمسك بيدها ونظر إلى عينيها برغبة، بانسجاق. والأزيز الكثيف يطن فى رأسه، وهو يسألها فى لهجة مثقلة، ملهوفة:

- اسمعى يا نجيه، طب وان ماخلفتيش يعنى، ما هو دا اللى حيحصل يانجيه، حيجرى لك إيه؟

فافلتت تنهدة صغيرة يائسة، فى سخرية، وهى تستند إلى قائمة السرير، وفى يدها علبة الكبريت الصغيرة، الحمراء، ويدها الأخرى قد تركتها، فى يده، وهزت كتفيها:

– تفتكر حيجرى إيه يا خويا، حيطلقنى.. آل آدى الفوله وآدى كيالها، آل ياعْوَر ضربوك على عينك.

ومصمصت بشفتيها، وهى ترميه بنظرة.

وجذبها إليه فى لهفة، مندفعة ومترددة، وتركت نفسها تطيعه، وهى لم تعقد عزمها بعد، وقال فى لهجة مكبوحة، بصوت أجش وأنفاسه متسارعة:

– نجيه.

فشهقت وهى تقول بصوت خافت فيه خوف وضحك ولهفة:

– ياختى.. ياشيخ بلاش هزار اعمل معروف، بتعمل إيه؟

وثارت فى جسدها زوبعة، وشملها الضوء المرهف المعلق. واحتضنها نوع من الدفء والغموض والحنين المبهور. وكانت مسكته بيدها رفيقة، فيها تملك مع ذلك. وهزت رأسها تزيح خصلة من شعرها المنسدل على وجهها السخن، وحاولت أن ترى وأن تفكر، لكنها كانت مجرد محاولة، مجرد إرادة للمحاولة. وانسدل على عينيها

قناع مموج ساخن من نور الغرفة وضوء عينيه، وحرارة الأثاث الخشبى المصطلى فى الشمس، وحرارة يده التى تضغط على يدها فى هدوء وحنو ونداء لا يرد. ورفعت إليه بصرها، كانت عيناه مستقرتين على منبت ثدييها النافرين، يبدو من آخر فتحة ردائها الصيفى. وقرب إليه وجهها.

واستمرت الظهيرة المتوهجة تسطع على خشب النافذة، والشمس تدور ببطء بعيدا فى السماء، وخطوط الضوء المستقيمة المغبرة تسقط من النافذة المقفلة، وتدور ببطء على أرض الغرفة.

ونسيا الشمس والنهار والسماء، ولم يعودا يعرفان غير شبابهما المضحى وفورة الحس المكبوح، نسيا العالم فى نشوة نابضة مرتعشة متطاولة. وأغمض عينيه. نسيا هذا العبد الجاوى وولدهما المنتظر له، هذا الولد الذى كان سببا فى هذا العمل، سببا صادقا نبيلا لهذا العمل الصادق النبيل. العمل النبيل؟ ماذا يهمه النبل أو الضعة فى ظهر هذا اليوم الحار؟ ورأسه يدور فى غيمة كأنها أزيز المواقد، ثم انسدل على ذهنه سكون حى رائع عميق،

لا تقطعه غير أصوات أنفاس متلاحقة وهمس كأنه فى الحلم،

– وألف قبلة.

وتألقت أمامه فى حمى، عينان زرقاوان وشعر ذهبى، ورن صوت حريرى ناعم. وانطلقت من فمه ضحكته القصيرة المرة، حشرجة تشبه الضحك، وغاصت يداه تتلمسان، تتكشفان، طيات الجسد الناعم الحار، وتطبقان على ركبتيها الباردتين يغطيهما عرق خفيف كالندى، وتضمهما إليه. ونظرت إليه في خوف ودهشة، وأغمضت عينيها تخفى عن بصرها عينيه المتقدتين الهاذيتين. انه الآن ينتقم. ينتقم من كل الشعر الذهبى فى الوجود كله. من كل الجمال المترف الباذخ، من كل النظرات الزرقاء بلا مبالاة، ينتقم فى روعة لاتحد، من أجساد السيارات الناعمة المنسابة، ومن ملل الدروس السمجة التي لا تنتهى، ووحشة المنازل الكئيبة، فى ظهر هذا اليوم الحار، يثأر لمأساة حياته الخامدة، وينتصر. فليدع مرارة لياليه تصفو الآن وتروق، ماذا يهمه من أحلامه الساذجة البريئة التى طالما عمرت فراغ شبابه، ماذا يهمه الآن؟ فيلرو

أحلامه العطشَى الحوشية، وهو يجمع بين قبضتيه الكنوز المليئة، وهو يضم ملء ذراعيه هذا الحلم الذى يلتوى ويرتجف، فى ظهر يوم حار.

وانطلقت من فمه ضحكته المريرة المستمتعة. وارتعشت نجية بين ذراعيه وسرى فى قلبها رعب بارد وحاولت أن تتخلص منه، فضمها إلى عظام صدره فى عنف متزايد ملحّ، وأنفاسها مبهورة من الخوف وأنفاسه لاهثة. وشىء كالمقت يأكل قلبيهما معا. وهو يعصر بين جسديهما التقزز الذى يرهف أعصابه ويشدها. ووجهه يدوس كتفها الطريّة. ألف قبلة، فى سورة ضاغطة منبثقة أخيرة، سورة الراحة.

وماتزال الشمس تسطع على خشب النافذة، والخطوط المستقيمة المتجاورة من أشعتها مستلقية فى همود شاحب بجانب الباب، وقد دارت كأنها تريد أن تفلت من تحت الباب، والأنفاس المعلقة المبهورة فى جوف الغرفة أخذت تتراخى رويدا.

لم تكن تنظر إليه وهى تسوى شعرها وتحس مرارة فى فمها، وألقت على الغرفة نظرة حائرة، ثم انطلقت

فجأة إلى الخارج، دون كلمة.

وفى غرفتها اعتمدت المائدة بمرفقيها، وراحت تنظر إلى الأشياء المعهودة دون أن ترى شيئاً ماذا حدث؟ لم يكن بمقدورها أن تعرف كانت تحس فى نفسها فراغا يتمدد. ويثقل على صدرها، ونظرت إلى نفسها فى إنكار، كأنها تنظر إلى شىء لا يمت لها بصلة، وتلمّست شفتيها، وحلمتى ثدييها من خارج الرداء، بأطراف الأصابع. لا شىء. ستنجب الآن على الغالب ولدا. لكنها لا تشعر بالندم ولا الإثم. ليس لزوجها، فيما تحس، أى حق عليها. ودون أن تعطى للإحساس وضوح الفكرة، وتحديدها، كانت تعرف ذلك. ولكن هذا الذى حدث؟ لماذا هى مُرّة وسأمانة؟ أكان معها - هذا الولد - جابر؟ هذه الضحكات. وهذا الجنون فى يديه، وفى أطرافه.

وطفا فى نفسها الضجر، وشعرت بشىء فى يدها، ففتحت أصابعها المتقبضة. علبة الكبريت الصغيرة الحمراء. ونظرت إليها نظرة جامدة. وأوقدت فى بطء عودا منها، ولم تجد في نفسها أكثر من ذلك الجهد، فراحت ترقب العود فى يدها والنار الصغيرة تزحف وتتراقص

عليه، ولسعت النار أصابعها. فألقت بها إلى الأرض فى احتدام مفاجئ، وسحقتها بقدمها فى غيظ. وبحركة سريعة أخذت تعمل فى موقد الجاز، وأقبلت على عملها الذى نسيته، عملها الجاد تغرق فيه فراغها واختناقها، وهذا الجسد المتألب عليها. وضحكت فجأة. ضحكته المريرة القصيرة. كأنها تعلمتها منه.

أما هو فكان يرتدى ملابسه ويتنفس فى جهد، وخواطره مشتتة. وابتسم ابتسامة جافة. ألم ينقذها؟ لكنه كان صادقا فى البدء. كان يريدها، وكان يريدها مع ذلك أن تتغلب على حظها السيئ.

لو أنه - هو - تزوجها؟ لا. لا. فيم يفكر؟ انه مضطرب. ليس فى حياتهما شىء مشترك غير الوحشة. والوحشة لن تخلق زواجاً ناجحا. سوف تنجب ولدا إذن. مثل فلفل؟ ذكى وجميل لكنه قذر ومضيع. يقضى حياته بين هذه الزرائب. ومن يدرى؟ قد ينسحق قلبه أيضاً تحت نظرة لا مبالية من عينين زرقاوين، يظللهما شعر أشقر.

وانتبه إلى نفسه يهمهم فى غيظ، وهو يسير على حافة الترعة، متجها إلى القهوة بالعادة. وكانت الشمس قد

توارت خلف السحب المنخفضة التي انحطت من السماء وانزلقت عليها بسرعة، تدفعها ريح قوية مفاجئة. وأمواج الترعة الصغيرة تتلاحق، والمراكب الضخمة قد طوت شُرُعها وتركت التيار المندفع مع الريح يجذبها عبر الجسر المفتوح، وصواريها ناحلة عارية ومحدبة، كأنها جثث منقلبة لطيور بحرية ميتة انطوت أجنحتها تحتها وارتفعت سيقانها الهزيلة الطويلة المعوجة تشق السماء، والريح تدفعها إلى مصير غير معروف. والمراكبية بأجسامهم السوداء يجرون تتلاحق خطاهم على حواف مراكبهم، وهم يضغطون على عصيهم الطويلة يغوصون بها فى طين الترعة، فتجرى المراكب تحت أقدامهم، وخرق هدومهم الباهتة يضربها الهواء فى عنف، كأنهم مع ذلك فى صورة فرعونية منحوتة على معبد قديم. صورة حجرية لا هواء فيها.

والمنازل إلى جانبه تبدو كئيبة تحت السماء المنخفضة، وشرفاتها الخشبية كأنما تهم أن تهوى إلى الأرض، من المضض.

وفى صيحة حادة مفاجئة، دهش لها هو نفسه:

- يا عم متولى، فيه طاولة فاضيه؟ هات لنا طاولة إعمل معروف، بسرعة شوية وحياتك.

وراح يرمى النرد مرة أخرى مع أحد الزملاء.. وهو يعود يندمج في القهوة، ويفنى فى ذهول دخانها المنعقد. والمواقد المتأججة تئز، والراديو يزأر فى موسيقى شرسة، والمكان يسبح فى ضبابة معلقة من قرقرة النرجيلة وقهقهة الحشاشين، وأقراص الطاولة تقرقع وتصطفق. وكانت صرخات الصبية فى الشارع تصل إليه مختلطة بزقزقة حادة مرتفعة من العصافير التي تتواثب وتضطرب فى قمم الأشجار على الترعة، خائفة من الرياح.

جهار دوبيا شيش. وقهقهة وقسم بأغلظ الأيمان، ثم قرقرة النرجيلة الطويلة المتأنية تصل إليه من خلال الأزيز المتقد وضجيج المذياع، وهو يفقد العالم. ويفقد نفسه فى غيبوبة غائمة من العتمة والفحيح، والطنين يتفجر فى قهقهة طويلة تقرقع وتدوى وتصرخ وتضطرب مع العصافير فى الشجر.

- الف قبلة.

حيطان عالية

وقف على الباب، فى الطريق الضيقة بين مخازن القطن. ومزقة من سماء الغروب الباهتة معلقة من فوقه، من بعيد.

كان قد حيى زملاءه الذين انصرفوا من قبل إلى شئونهم. وكأنه يتردد إذ يترك يومه الطويل الممل من الكتابة فى دفاتر حسابات المخزن، ويهم بالعودة، وخطواته تنقله من حياة إلى حياة.

ضاع فى سيل من الناس يهرولون فى الطريق التى تجرى إلى جانبها ترعة المحمودية، والمخازن تقفل أبوابها وخفراؤها يتحققون الأقفال ويتحدثون فى كسل، ويحسون الليل لما يكد يبدأ.

سحابة مقطعة تترك ذيلها المحمر على كوبرى القبارى، وعربات الترام تصلصل فى الشارع بين سيارات النقل المسرعة المكومة بالقطن، والكوبرى يبدو من بعيد لعبة من

الحديد الرقيق تضطرب فوقها الناس والعربات، دون معنى.

وقف ينتظر الترام، فى حشد من العمال وصغار الناس، وجوههم قاتمة مربدة تضيئها لمعة عابرة إذ يتركون عمل يومهم ويعودون ينشدون شيئاً من نسيان أو شيئاً من حياة.

وأحس الميدان تملؤه العربات والدبدبة وطنين الناس، والسماء تتسع فجأة فوقه فإذا هى فسيحة براح يخامرها ضوء آخر النهار، وأحس وحدته فى هذا الغمار تنفتح فى داخله كحفرة، لأنه يعود إلى بيته ولكنه لا ينتظر شيئا، فهناك امرأته تقف أمام موقد الجاز فى المطبخ، وسائر الغرف مظلمة مقفلة، وبنته فى غرفة النوم – مريضة. وفى البيت خمود وملل رازح. لكن نفسه لا تنزع به مع ذلك إلى القهوة ولا إلى أصحابه فيها. وهو الليلة لا يكاد يطيق شيئا. يعود إذن يقرأ الجريدة ويتعشى وينام، فهو قد ضاق بيومه كله، ويود لو انتهى منه سريعا. بل ضاق بكل شىء وقلبه ينقبض من الضجر والقهر كأنه أضاع شيئاً

عزيزا إليه، أضاعه بلا رجعة.

ومد للكمسارى قرشا فوق أكتاف الناس، والترام مندفع يهتز، يقطع الشارع الطويل، ونسى نفسه لحظة، فى زحمة الأجسام المتعبة يفوح منها في الحيّز الضيق صِنان العرق وشغل النهار.

وهو يخبط على الباب ولا يرد عليه أحد.

فخبط فى شدة وضيق. وألقى بالتحية إلى امرأته وسأل عن البنت، فأجابته باقتضاب:

- كويسة.

- نايمة والا ايه؟

- مش عارفه، أهى في السرير.

وجلس على حرف السرير. وطالعه من العتمة وجه بنته، أسمر منحوفا، مشتت الشعر ضئيلا، هذا الوجه الصابح الغض وقد تهضمه المرض ونشف ماءه، وعيناها الكبيرتان تقفان عليه، فى تساؤل، كأنها حيرانة، لا تفهم. وعلى جبهتها المدورة ندى خفيف من العرق. فوضع ذراعه حول كتفها الصغيرة وهو ينحنى عليها، وقد در قلبه

بالتحنن، كأنه يعتذر لها من صحته.

وسألها هل أكلت، وماذا تحس الآن؟

ولم تكن هذه الغرفة بالذات مضاءة، فأسلاك النور متعطلة فيها، ولم يتح له أبدا القليل من الفراغ، ولا القليل من النقود، حتى يصلحها.

وامرأته تأتى فتقف بالباب هُنيهة، ثوبها قديم ينحسر عن بضعة من صدرها الصغير المرتخى. وإذا اندلاعة من حبه القديم تحرق صدره فجأة.

وقد انقضت خمس سنوات منذ تزوجها، لكنه لم يستطع أبدا أن يستقر إلى حبها. أهى تحبه، هذه المرأة التى تزوجها والتى تقف بالباب، وثوبها الذى كاد يبلى يلف جسمها الصغير الناعم، جسمها اللدن الضيق؟ إنه يعرفه على الأقل، هذا الجسم. يعرف طراوته الغضة، وجلدته المرهفة الحريرية، يعرف رجفته إذ يستجيب له، وحرارته وتقبضه بالنشوة، ويعرف ملاسته واستكانته ووداعته تحت أصابعه الملاطفة، ويعرف برده إذ يكون جائعا إلى الحنو، وجائعا إلى رجولته، ونداءه الخائف، من

غير صوت. ويعرف نفرته أيضاً ورفضه، وانكماشه وانزواءه كحيوان خجول وحشى يدفع عن نفسه، ويقفل أبوابه على ظلامه الداخلى. نعم يعرفه، جسمها، لكنه لا يعرف أبدا ما سر الهوى الذى يعيش فى هذا الجسم. أهناك هوى، على الاطلاق، يعيش فيه؟ شىء يشبه، ولو من بعيد، هذا الحريق الذى يأكل نفسه الآن، سعر من التوق إلى الزمالة وإلى الفهم، ونار تشتعل من نسيج النفس وحدها، لا صلة لها بالدماء، حريق من حسه بالوحدة، بأنه مرمى وحده، فى عزلة نهائية، دون أمل فى النجاة.

وهو إنما يطلب من حبه أن تتهدم فيه أسوار هذه الوحدة، ويمضه شعوره أن لا جدوى هناك، فامرأته صامتة وغريبة، أجنبية. وهو وحيد أبداً. وهو يهم أحيانا أن يهتف بها أن يزعق فيها، لكى تكلمه، لكى تقترب منه، لكى تمد إليه يدها، تفعل شيئاً، أى شىء، يشعره أنه ليس غريبا، هو، ليس شيئاً، هو، آتيا من مكان آخر غير معروف، ليس منفيا ملقى به فى العراء، أنه فى النهاية

ليس وحده، وحده، وحده مقضيا عليه دون خلاص بهذه الوحدة التي لا تطاق.

لكنه لا يجد مقدرة أن يهتف بها، بل أن يهمس لها. ويشعر فجأة أن لا طريق إليها، فهى فى معزل، لا تُنال، ويده لن تطولها قط. وحبه لها يأكل نسيج نفسه، لأنه يود أن يطويها بين ذراعيه، أن يأخذها إلى حضنه قريبة حميمة كأنها بضعة من قلبه ولحمه، كأنها تنبض فى داخله، ويعرف أن لا سبيل، وتُرمضه معرفته.

وسوف يدوسه القهر، لأنه فى كل مرة يعود محبوطا. ومهما عصرها فى لياليه ودعك لحمها إليه، فهى أخرى ماتزال، غريبة، بعيدة، منفصلة. وهذا الشوق جائع أبدا لن يعرف الرضا. هذا الشوق الذى لا يعرف أن يسميه، لكنه هناك، لا يتبدد، لا ينحل.

وها هى ذى تقف بالباب، وحول عينيها حلقات سوداء من النَصَب والهم، لعلها هى أيضاً أن تعرف معنى الوحشة في هذا البيت، موقد الجاز يفح، وأسلاك النور معطلة، وبنتها مريضة، وهى محبوسة بين هذه الحيطان.

لا يدرى. فحتى وحشتها صامتة، غريبة عنه، لا طاقة لها به.

وامرأته لا تعرف أن تتكلم، أن تعطى لنفسها أصواتا، بل لا تعرف أن تعبر عن نفسها بشىء آخر غير الكلام. مهدورة تماما، كأن نفسها لم تولد أبداً وظلت برعما خشنا خاما مغلقا على عصاراته الكثيفة، لن ينفتح.

- أحضّر لك العشا؟

- عندنا ايه؟

- بطاطس ورزّ.

بطاطس ورز، من طبيخ الأمس. هذا الأكل الذى تقدمه له، معجونا دائما لزجا فى الزيت والدمعة. قوام حياته التى ألف طعمها الآن. وهو متعب فجأة مهدود، ولا شهوة له لشىء. لكن فراغا فى أحشائه عليه أن يملأه بهذا العجين المطبوخ، كدأبه كل ليلة.

ووضعت له طبقين على السفرة القديمة المغطاة بمفرش أبيض حائل مبقع، وسمعها تعود تتحرك فى المطبخ من جديد، أمام موقد الجاز.

- مش حتيجى تتعشى معايا؟

وجاء ردها من المطبخ، وهى تغسل شيئا فى الحوض.

- ماليش نفس دلوقت، يمكن آكل بعدين. باعمل لك الشاى، عايز شاى؟

- آه.

من فم ممتلئ.

وأخذ يحسو شايه الثقيل المسود، وينفث دخان سيجارته الهوليود اللاذعة وفمه يعود إلى إلف إحساسات المساء العادية، يستطعم البطاطس والشاى الخشن المر ودخان الهوليود على لسانه، لا لذة فيها إلا متعة العادة القديمة، وسمع بنته تكح من عتمة غرفة النوم، كحة مؤسية وهنانة تهتز بجسمها السخن الملقى على الفرش. وغشاه العالم يضيق حوله وينقبض به، والبيت كالسجن لا حول له فيه ولا يد له فى شىء.

- البت خدت الدوا؟

وامرأته تجيبه، ولهجتها تشى بالمرارة، نعم، ومع ذلك فها هى كما ترى سخنة، ضعيفة، تكح.

وهى تأتى من المطبخ تجفف يديها فى فوطة مشعثة، وقد وقعت خصلة من شعرها الأسود اللامع على جانب جبهتها. وانبثقت فى داخله فجأة شهوة أن يأخذ هذا الرأس بين يديه، فيغمض عينيها بفمه على ما فيهما من عتاب، ويمر براحتيه على هذين الخدين فيمحو برقة خطوط الخيبة والمرارة التى يراها على صفحة وجنتيها، أن يحتوى ذقنها بين كفيه، وأن يدفن رأسه ووجهه جنب عنقها، فى تسليم وضراعه لأن تعفو، فما بوسعه شىء، كأنه حبيب صغير مخيب الأمل.

لكنه ظل على كرسيه، تشعفه شهوته ولا يفعل شيئاً، غريبة هذه الإندلاعات، كأنهما لم يتزوجا منذ خمس سنوات، كأن يديه لم تعرفا بعد مسة خديها وملاسة جسمها كله، وخصب شعرها الناعم الهين بين أصابعه، كأنه يشتهيها لأول مرة. وترك رغبته تمضى، غير متحققة، شىء ما فى هذا الوجه المتعب المغلق يحبطه ويصده، شىء يبعدها عنه، وهو يوجس منها، كأن فى نفسه دبيبا لا يكاد يستبين من حسه بإثم ما، بذنب غير محدد.

وحفزه شيء فاختطف سترته وهب متجها بسرعة إلى الباب، وهو يقول:

- أنا رايح القهوة شوية، يمكن أتأخر بالليل.

صدمه هواء الليل، والشوارع المزدحمة الضيقة بأنوارها الكثيرة تومئ، وتبرق وتغمز في داخله فتحات حساسة، كما لو كانت الأنوار وخزات تنخس الجلد الملتهب المشدود على جروح ضاربة مفتوحة، والترام يجري في الشارع مليئا بالناس، والباعة والعساكر والسيارات تقبض على هامش وعيه بأصواتها، لكنها ترميه بعيدا، إلى بعد آخر من أبعاد غربته.

ودار بنظره في القهوة فلم يجد أحدا من أصحابه، وهبط ثقل جديد بقلبه إلى أسفل. ألن يجد أحدا يلعب معه الليلة؟ هذه الليلة!. لكنه لن يطيق الجلوس هنا وحده بين الناس. لن يطيق. لن يحتمل.

وانفرجت نفسه فقد وجد شخصا يعرفه هناك، ليس صديقا بالتأكيد لكنه يعرف هذا الوجه. فقط نسي اسمه. هذا الوجه مألوف إليه، بل مألوف جداً. كأنه يراه كل يوم.

لكنه لا يتـذكـره مـع ذلك. هـذا الشـعـر الأكـرت وهـذه النظارات على عينين ضيقتين مطفأتين، والجبهة الضيقة والذقن المنحدر إلي الوراء.

وإذا هذا الوجه القشِف الجهم يبتسم له فجأة، ويقوم إليه يحييه، واتجه إليه مترددا، يرد التحية.

ثم يقف مرة واحدة، وقد تقبضت المفاجأة بقلبه وأحس ركبتيه تكادان تتخلعان به. هذا الوجه وجـهه، وجـهه هو. كـأنه يرى نفـسـه خـارجـاً من المرآة، بل من صـورة فتوغرافية مجسمة حية إطارها عرض الحياة نفسه.

وتوقف ذهنه، وأحس أنه لم يعد يفـهم شيئاً، ولـم يعد يهتم.

ولكن الآخـر دعـاه إليـه وسلم عليـه، وفى عـينيـه بريق خبيث، كأنه، هو يفـهم. والناس حـولهـمـا يلعبـون الطاولة ويدخنون ويلغطون، ويجلسون على كراسيهم فى خمول، ينظرون إلى الشـارع والتـرام والبنات. كـأن شـيـئـاً لم يحـدث. كـأنهم هـم أيضـا لا يجـدون فى الأمـر غـرابة، ولا ينكرون شيئاً، أبدا، على الإطلاق.

والجرسون يأتى، والآخر يطلب اثنين قهوة على الريحة، وطاولة، كذا. دون سؤال. دون تردد. كأنهما صديقان قديمان. وهو لم يتكلم بعد وقد عقلت المسألة كلها لسانه، لكن الآخر يسأل عن صحته وكيف الحال؟ فيرد عليه بشكل آلى، وذهنه غائب، وهو يحس ألفة به، كأنه لم يتركه إلا بالأمس فقط. كأنهما يريان أحدهما الآخر كل يوم، ويعرفان أحدهما الآخر منذ الطفولة، وقد تكلما فى كل شىء، وعرف أحدهما الآخر ظهرا لبطن، ولم يعد لديهما جديد يقولانه، فلم تبق إلا الطاولة. نوع من الألفة الوثيقة الحميمة تربط بينهما، معرفة الشخص لنفسه.

لكنهما الليلة يلعبان الطاولة على شىء له أهمية وخطر. والحماس يرتفع فى صدره الآن، ويشعره بحمو جديد غير مألوف. لابد أن يغلبه الليله، هذا الآخر. مصيره كله، بشكل غامض، معلق بلعبته الليلة، لابد، لابد أن يظهر عليه، أن يغلبه غلبة نهائية، حاسمة، باهرة. والآخر ينظر إليه من وراء نظاراته، وهذه اللمعة تضئ عينيه، فهو

يعرف أهمية اللعبة، لكنه واثق من نفسه، كل الثقة، هذا الآخر.

وغاظته هذه الثقة من الآخر، وأوغرت صدره، فهو يلعب فى يقظة ودقة وحرص. وينسى القهوة والبيت والشغل، ويفقد الشارع والناس، ولا يبقى أمامه إلا الأقراص تدور وتنتقل وتخبط خشب الطاولة، تخطط مصيره فى حسابها الدقيق. ويداه ترميان النرد وعيناه تتعلقان به وذهنه يعمل فى نور سخن صافٍ. وهما يترامقان بنظرات خاطفة وليس بينهما إلا حساب الطاولة يتتابع ويدور سجالا، وفى داخله حس بالعداوة لهذا الآخر الذى يحمل وجهه بل يحمل نفسه أيضاً. عداوة وغربة ومقت. وهما يعرفان أحدهما الآخر حتى نبضة الدم فى غور الشرايين، لكنهما منفصلان وجسمه يقف بينهما، حائطا من الحجر لا ثغرة فيه، مغلقا على سره. حائطا لن تنفتح فيه فجوة. وحياته تدور من داخل الحيطان، حياته بأسرها شىء خاص، لا يهتم به أحد فى الخارج، ولا يعنى أحدا، ولا هذا الغريب.

هذا الغريب الذى يعرف ذلك كله، ولا يوليه أى اهتمام. بل بارد وقاح، يلعب مالكا زمام أمره، فى هدوء من يعرف أن الكلمة الأخيرة له. ويسأله الآخر فجأة:

– ازاى البنت النهارده؟

فوقفت يده فجأة وبرّق فيه عينيه، فى موجدة. كأنه يكايده هذا الآخر يسأله عن بنته المريضة كأنه يتابع أخبارها يوما بيوم، ويسأله بكل هذه اللامبالاة. وأخذت عينه رفوف القهوة وقد رصت عليها الأكواب والفناجين وأوعية الشيشة النظيفة، صفا فوق صف، والصبى يعمل فى جد بين مواقد الجاز، بلا تعب، والجرسون يصيح من بعيد واحد مضبوط واثنين سحلب عندك، وعاد يهم بمواصلة اللعب لولا أن شلّته المباغتة، دفعة واحدة، وأحس الأرض تميد من تحته، والقهوة والناس فى مقاعدهم تتألب عليه، كهزة من موج ثقيل. وخسأ بصره دون أن يتحكم فيه، ثم عاد ينظر، مشدودا إلى النظر بقوة لا تدفع. لم يكد يصدق عينيه. لكنها هناك. لاشك فى ذلك. وهو لا يحلم، لا يهذى، بل يرى بعينيه. والناس أيضاً

يرونهـا دون اهتـام، ثم يعـودون لشـئـونهم، كـأنهـا لا هـى بالجديد عليهم ولا شىء غريبا فى الأمر كله. وعاد يختلس نظرة إلى الآخر فإذا هو قد أشعل سيجارة هوليود وأخذ ينفث دخـانهـا وهـو ينظر إليـه، فى هـدوء، كـأن الأمـر لا يعنيه، بل لا يعنى أحدا. وهو يقول مشيرا إليها، فى ركن القهوة تحت صفوف الأكواب والفناجين وأوعية الشيشة المرصوصة، جنب مواقد الجاز، بنتـه، عارية تماما على سريرها، تحت العيون جميعا، مكشوفة فى وسط الناس.

– لسه تعبانه برضه. معلش بكره تصحى.

والجـرسـون يدور من جـانبـهـا، يؤدى عـمله ولا يكاد يلتفت إليها، وهى عريانة، يلقى إليها بنظرة لا مبالية، وهو يطأ جانبا من ملاءة السرير البيضاء التى تقع من حرف الفراش على بلاط القهوة، كأنها هناك من زمن طويل.

والأمـر على ذلك غـريب، غـريب، لا يصـدق، جنونى، لكنهـا هـناك، ها هـى ذى، ليس هنـاك تخـيـيل ولا هـذيان، وهو صـاح كل الصحوة، وكل شىء حوله مـجسم ملموس، وباب القـهـوة مـفـتـوح على الشـارع، مـفـتـوح على النور

والضجة بالخارج، والترام ملىء يجرى بالناس، والمارة والركاب يستطيعون أن يروها على سريرها. والباعة والعساكر يروحون ويغدون، والبنت على فرشتها، تحت الضوء القاسى، بين ضبابات الدخان، عارية تماما، بجسمها النحيل الضيق الطفلى، وقد التصقت خصلة من شعرها الخفيف بجبهتها المدورة المنداة من العرق، وعيناها تتجهان إليه، من عريها التام، فى حيرة من الألم والمرض، عارية منهوكة ملقاة، ذراعاها ممددتان إلى جانبها، لا حياة فيهما وساقاها الطفليتان الطويلتان لا شىء يغطيهما، وقد برزت ركبتاها فى جفاف، وعضلات فخذيها ضامرة نحيلة، وضلوعها وعظام جنبيها ناتئة واضحة من الهزال، تحت الجلد الباهت المشدود، وزغب المراهقة الأولى لا يكاد يخفى تلك الفتحة البذيئة تحت هذا البطن الهابط الأجوف. وباب القهوة مفتوح مع ذلك على أنوار الشارع، والناس مشغولون بلعبهم وتدخينهم وحديثهم، يلغطون ويتثاءبون من ملل قعدتهم الطويلة.

وأحس خدرا فى جسمه يشله عن الحركة. الناس كلهم

يقبلون هذا الأمر كأنه يدخل فى سياق المجرى العادى للأمور. وهو أيضاً، بشكل لا يصدق، كأنه يعيش فى مستوى آخر من الحياة، يقبله، ويسلم به.

والآخر يرمى النرد، وهو لما يكد يتوقف لحظة واحدة.

واستمرت اللعبة على بعد خطوات من السرير الذى ينصب عليه النور الخشن، وعلى تلك الجثة العارية الحية تحدق إليه بعينيها الوادعتين البريئتين، لا استغراب فيهما ولا قلق، بل حيرة من الوجع وتساؤل صابر معلق.

والآخر تلمع عيناه فى ثقة.

لكنه أيضاً قد تجمد فى نفسه العزم على النصر، وتحجرت إرادته فى عناد، وهو يشعر بالخطر يحدق به من كل ناحية، من هذا الوجه، الذى يعرفه، لكنه نسى اسمه، وهذه القهوة بموائدها التي يستلقى بينها سرير بنته العارية المريضة، كأن البنت، بشكل غير واضح، غير واضح أبداً، موضوع لعبته الليلة، الأمر يتعلق بها بشكل أو آخر.

واندلعت فى نفسه شهوة فى أن يحيط هذا الصدر

الضيق الناحل، صدر بنته الطفلى لم تَكَد تنبثق فى حلمتيه الصغيرتين عصارة المراهقة الخام، يحيطه بذراعيه ويدفن رأسه فيه، كأن فيها شيئاً من امرأته التى تركها بالبيت من زمن طويل، وأن يرتمى عليها فيخفيها عن هذا العالم فى عتمة حبه لها، أن يهب هذا الجسم العارى المريض صحته وقوته، وحياته كلها، أن يكفّر، نعم يكفّر بكل ماء حياته عن ذنبه الذى لا يعرفه الآن، ولا وقت لديه يفكر فيه، ولكنه مسئول بشكل ما عن مرضها وعريها وانكشافها للضوء الصلب الجاف الذى يسقط عليها بكل ثقله فيطؤها وينوء بها، ويشلها، وتلج به رغبته أن يستغفرها، بنته، أن يبكى على حرف سريرها، على طرف قدميها الصغيرتين البارزة عظامهما فى نحول رقيق، وأن يبرها ويعوضها، بل يضحى بنفسه من أجلها، نعم يضحى بنفسه، فهذا هو المطلوب منه. لا أكثر ولا أقل، حتى تأنس من هذه الحيرة التى تطل من عينيها، حتى تستريح وتتغطى، وتبتسم.

لكن الناس ينظرون إليها كما لو كانت شيئاً قد ألفوا

رؤيته، ويستمرون فى شأنهم. وهو يشعر بما يقهره على استئناف لعبته، فها هو الآخر ينتظره ويلعب معه كأن الأمر كله غير مسل على الإطلاق، فليس هناك نصر ولا غلبة. واللعبة دائرة.

وكان الليل هادئاً وهو يرجع إلى البيت، والنجوم ترمقه من بين سطوح المنازل، والحيطان ترتفع على جانبيه، صامتة فى كبر، والأنوار قد أنطفأت فى النوافذ، والأحجار مقفلة على الحيوات التى تنبض وتنعس وتمور خلفها، مسدودة، مصمتة. والتعب يتفتر بجسمه، ولا هدنة هناك، وإنما هو الشوق ينزع به إلى الدفء يتلمسه من جسم امرأته في الليل، حتى الصباح، وقد عاد لا يدفعه إلا الرهق حتى يأوى إلى قطعة من الأرض ألفها ويؤوب إلى حضن أنثاه، ينشد ليلة راحة، حتى الصباح.

أبونا توما

كانت ليلة خريفية من بابَهْ، القمر مشرق فى سماء الصعيد، والصحراء تئن فيها الريح والدير يبدو بأسواره الضخمة ومنكبيه الكبيرين، نصفه غارق فى الظلمة ونصفه متوهج بنيران القمر البيضاء، كحيوان خرافى من رؤيا يوحنا. وكان أحد الرهبان يطوف على السور العريض، للحراسة، معلقاً إلى كتفه بندقية عتيقة، حتى إذا وصل إلى القبة الكبيرة جلس تحتها، مستنداً إلى الليل فى العتمة والنجوم القليلة تلمع بعيداً عن القمر فى حِجْر السماء الحريرى. وثم عواء ذئب يسرى بين الرمال.

وعلى مبعدة من البناء الضخم تتناثر أبنية صغيرة قليلة متداعية، يتكوم معظمها فى صمت. مهجورة. على أن النور يشع من صومعتين متجاورتين منها، باهتاً فى ضوء القمر.

وبين الدير الشامخ وبين هذه الأبنية المبهمة كالمقابر

تتخذ الحجارة والأنقاض أشكالاً غريبة فى الليل المقمر، كأنها أجسام متصلبة فى كابوس، ترمى بذراعيها متشنجة، فاغرة أفواهها بلا صوت. وثم جماجم قديمة مرمية، بيضاء من طول التعرض للشمس، تبتسم أبداً عن نواجذها وعن عيونها المفتوحة بلا راحة.

كانت الذئاب الضارية، فى القديم، تقف على أبواب هذه الصوامع فى خشوع، لتحرس سكانها القديسين. وكان الرهبان يقبضون فيها أيام التجربة على الأرض. فى وحدة مباركة بالروح. لكن الرهبان هجروا هذه الصوامع شيئاً فشيئاً، وهجرت الذئاب هذه الناحية من الصحراء. أما البذور التى ألقاها الزارع الصالح فلم تهلك كلها فى الرمال والصخور. بل نمت وترعرعت منها نبتةُ طيبة أو اثنتان، وها الضوء الأصفر مايزال يشع من هاتين الصومعتين، فى انتظار ملكوت السموات، فى هذا السفح الموحش، المهجور إلا من الثعابين، والثعالب التى تأتى أحيانا فتقف على الباب بهدوء وتمضى وهى تقرقر بأسنانها.

وأبونا توما وأبونا متّى لا يفتآن يصليان، ويترنمان بكلمات الله وتسابيح الآباء والقديسيين. كانا يذهبان فى الأعياد إلى كنيسة الدير، ثم يعودان محمّلين بزاد روحى من التقوى، وبقفف مملوءة بالخبز الجاف يأكلانه على مادر السنة مبللاً بالماء الذى ينتحانه بأنفسهما من البئر فى صحن الدير - كانا يعيشان فى عزلة النساك الأقدمين - ثم يتناولان القربان المقدس وينالان بركة الأب الرئيس.

وكان أبونا توما يرجع بكمية كبيرة من الورق السميك الأصفر، وحزمة من بوص الغاب للكتابة، وزجاجة كبيرة من الحبر الأسود ومثلها من الحبر الأحمر. فقد كان ناسخاً يقضى أيامه ولياليه - بعد أن يفرغ من قراءة الكتاب وأداء اللاوات والترنم بالمزامير التسابيح - فى نسخ الكتب المقدسة والأشعار التى قيلت فى تمجيد الحَمَل الوديع وتقديس أم النور، وفى زخرفة الحواشى بالرسوم الطاهرة، وتدوين سير الشهداء والقديسين. وكان يحب أن يرسم العذراء وعلى ذراعها الطفل الالهى، وحول

رأسيهما هالات من النور بالحبر الأحمر، تحيطهما الغصون المتشابكة وأوراق الشجر والزهور المستديرة الحمراء، كأنها تترنم باسم القدوس.

أما أبونا متّى فكان يعود وملء يديه سعف النخل وخيوط الكتان والخوض والإبر ونحوها من أدوات خصف القفف وصناعة الأقفاص. فقد كان بعد أن يؤدى واجباته الروحية كلها يبارك المواهب المتواضعة التى منحها إياه الرب يسوع، يعمل بيديه فى ابتهاج، مقلداً النجار الإلهى، مترنما بالتسابيح، ليعود فى العيد التالى إلى الدير وعلى كتفيه وملء يديه السلال المجدولة بشكل ساذج وجميل والأقفاص الخشبية من سعف النخل فى غاية القوة والرقة، والقفف المخصوفة فى دوائر تامة الاستدارة.

وعلى هذا النحو كان أبونا توما من ناحيته يعبر أيامه ولياليه، حالماً فى غيبوبة من الكلمات المقدسة، يرددها بصوت خفيض وهو ينسخ فى غيامه من جمال يسوع وطهر العذراء، ونعيم الملكوت فى أورشليم الآتية.

أما أبونا متى فكانت صومعته فسيحة ومنيرة فى

سقفها فتحة واسعة يرى منها السماء والسحب والبيضاء الطائشة تطفو على أمواج الضوء الزرقاء، وتلمع فيها نجوم المساء وهو يخصف ويُسبح، فى صوت جهير.

كم مرة توجه الراهبان فيها إلى الكنيسة فى العيد، وصليا فى الهيكل، واعترافا بخطاياهما؟ لا أحد يدرى على وجه التحقيق. لقد امتلأت مكتبة الدير بالكتب الجميلة التي نسخها الأب توما، وامتلأت الأروقة والصوامع بالسلاسل والقفف، وما من راهب فى الدير إلا وهو يذكر أنه عندما جاء الدير لأول مرة، كان الراهبان فى صومعتيهما المنعزلتين، لا هما بالشابين ولا بالشيخين، كأنهما لا يعرفان معنى الزمن.

وكانا يتناديان أحيانا من وراء جدران صومعتيهما، ليذكرا مجد الرب أو يتعجبا لآياته التي يظهرها ليل نهار لأعيننا الخاطئة، نقاوة القمر أو رقة السماء أو لطف النسيم فى أول الليل، بعد يوم حار.

وما يزالان يعملان، هذا يخصف ويجدل، وذاك ينسخ ويرسم، سعيدين بالروح، ظافرين بالجسد متغلبين على

الشيطان، ببركة يسوع المصلوب، ونعمة الأم المقدسة.

وفى تلك الليلة من بابة كان أبونا توما يفكر فى الشيطان. ألم يدعُ الآباء القديسيون إلى التفكير في العدو، حتى نتخذ منه حذرنا ونعد له عدتنا، ونقهره بالروح؟ وذكر الأب توما كيف كان الشيطان يجب الرب إلهنا فى البرية. لا تجرب الرب إلهك لا تجرب الرب إلهك. ولسوف يتغلب رب الجنود على قوات الشر، ويحبس الشيطان ألف سنة، يسود فيها السلام، فى أورشليم المجيدة الثانية. ألف سنة؟ كان ذهنه مضطربا الليلة..وبعد هذه الألف؟ لم يكن يذكر تماماً ماذا يحدث بعد هذه الألف سنة. وعيناه مظلمتان قليلا لأنه كان يرى أورشليم الماضية، أيام نزل الرب أرضنا هذه. فى القبور القذرة الموحشة يهيم بينها من مسّهم الشيطان، أولئك التعساء يجرون بين المقابر وهم يمزقون شعورهم، مهلهلين بلا طعام ولا مأوى، بأعين متألقة وأصوات مبحوحة، يعوون إلى الرب يسوع، إذا يمر على المقابر، أن يخلّصهم من الشرير.

وكان يتحنن عليهم المخلص، ويأمر الشيطان فيحل فى قطعان من الخنازير التى تنطلق فجأة من على الجرف، وهى تعوى بدورها وعلى أشداقها الدم والزبدِ، تتدافع إلى البحر وتسقط فى الماء وهى تشرق وتغوص، وهى تقبع وتعوى وتموء. وهزته قشعريرة وهو ينظر إلى الظلال المحمرة التي تلقيها الشمعة على جدار صومعته. هذه الظلال التى عمرت ليالى حياته تبدو له هذه الليلة غريبة. وهو يفكر فى النباح والجوع ذى الأعين المتألقة، والشياطين تأتى لترقد فى الظلمة خارج صومعته، وترسل العواء عاليا يمزق الليل. لماذا الرب يتركها؟ هذه الشياطين تعوى فى الليل، وتطأ الروح بأقدام من الشوك. تطلق الدماء والرغوة إلى الأشداق ثم تختنق فى الماء بعد أن تسقط من الجرف. لماذا الرَب يتركها؟ لا تجرّب الرب إلهك. مكتوب فى الكتاب لا تجرب الرب إلهك.

كان الراهب خائفاً، وكانت الريح تزف. وأدرك أنه يعانى تجربة ليست من الله. فمتى يهدأ قلبه ومتى يتقوى بالروح؟

ركع وراح يصلّي ويستغفر الأب، مغمضاً عينيه، والتهب وجهه كأنه شرب خمرةً شريرة والصلاة زادته الليلة حمى وقلقا وجوعا إلى الله. جوعاً لعل الشيطان نفسه فتحه فى أحشائه. إنه لا يدرى. إنه حزين هذه الليلة، وضعيف بالقلب، كأنه طفل فى لفائف أمه.

وأمسك قلمه فجأة وأقبل على الورق، يكتب رسالة من الرسل، معقدة لم يكد يفهم لها معنى، على الرغم من أنه يحفظها عن ظهر قلب. ثم توقف. إنه لم يرسم علامة الصليب على وجهه عندما انتهى من صلاته، وأقبل على كتابته. ولأول مرة فى حياته. فرسمها فى تعجل ويداه ترتعشان. هذه الليلة لا تنتهى.

واستحال خطه رويدا إلى تلك الكتابة الجميلة التى ملأ بها مكتبة الدير، وهو يحلم من غير أن يحس - رسالة إلى أهل تسالونيكى، إلى رومية، إلى أهل كورنثوس، وأفسس، هذه المدن التي مايزال يعيش فيها الراهب، إذ لا يعرف غيرها. مدن واسعة وثنية فخمة فيها قصور من الرخام الأبيض الناعم، والحمام فى الشجر، ورجال

ضالون يهرولون فى شئونهم الدنيوية، والنساء فى ثياب حريرية هفهافة. وقد نسى كل شىء عن أزمة ليلته، وعن تجربته. وكانت الرياح تقصف بالخارج.

ثم سمعها فجأة، تتأوه فى أناتٍ عميقة ممتدة مع الريح، متهدجة فى شكاة:

- يابونا توما.... بونا توما.....

ورفع رأسه فى دهشة كاملة. مَنْ تلك التى تناديه بهذه اللهجة؟ وهجم عليه الخوف دفعة واحدة. وهبت الزوبعة تنز فى نفسه بعنفها كله. هذه التى تهتف باسمه فى تلك النبرة الطويلة الدافئة المرتعشة، يا يسوع، من هى؟

وأشرق الجواب فى ذهنه فجأة، كترياق ينصبّ فى روحه المظلمة المسمومة، إنه متى، هذا الأبله بجواره، يناديه والريح تحمل إليه النداء فتغيّر من نبراته. الأحمق.

وخرج من صومعته، وعصفت الريح بثيابه السوداء الفضفاضة، وهو يصيح:

- واى يابونا متى. عم بتنادم ليه؟

وجاءه الرد فى صيحة مندهشة مبغوتة:

- بسم الأب والابن والروح المقدس. بتجول إيه يابونا توما؟

- واه عم بتنادم عليّ ليه؟

وسمع الإجابة الضاحكة:

- جَبْر يابونا جبر. بنادم ليه؟ دى الريح ياواه. وأنا هاعيط عليك الساعة دى ليه يا خوى؟

- بُهْ. الريح.

إذن فهى الريح من أول الأمر لآخره. وليس ثم نداء. وامتعض وحنق على نفسه، وهذا الأبله متى يرد عليه هازئاً. وهو يضرب الحصى بقدميه راجعا. والريح تضرب ثيابه السوداء الفضفاضة.

- جَبْر يابوشنودة جبر. دتارى سرك باتع صح.

وهو طفل فى الصعيد فى قريته البعيدة. وسمع أمه من أمام الفرن، ذات صباح، وقد رأت عقرباً ضخمة شائلة تنطلق نحوها من تحت أقراص الجلة الجافة، فى سرعة عمياء. وصاحت أمه بالقديس أبو شنوده. شفيعها إذ يلم بها الخطر أن يوقف هذا الفزع الداهم، صارخة

بأعلى صوتها كأنما تريد أن يسمعها فى السماء، ومن حرارة ذعرها.

- وجِّفه يابوشنوده وجِّف.

وسمع الراهب صرختها فى جنبات طفولته، وهو يعود إلى صومعته. وقد وقفت العقرب كأنما الصرخة العالية سمّرتها بالأرض، كأنما القديس شلّها على الفور ولم تتمالك الأم فى طيبة قلبها أن تهتف، وهى تهبط على العقرب بأقرب شيء وقعت عليه يدها، قرصاً جافا من الجلة، فتقتلها، وينكسر القرص:

- جبر يا بوشنوده جبر.، دتارى سرك باتع صح.

ودخل صومعته فأحس ريح الليل تتسلل معه، وتعصف بذبالة شمعته. كانت أمه تقول إذ يأتى ليل الخريف:

- بابه خش واجفل الدرابه.

وكانوا يُحكمون إغلاق الباب والنوافذ جميعا، ويقعد جَارَ أمه بجنب الفرن، وإناء العدس الأصفر يغلى ويملأ المكان بعبق لذيذ، بين الدجاجات النائمة التى تنق فى أحلامها، والماعز، والجاموسة فى طرف القاعة تجتر

طعامها وهى ناعسة فى كسل، تنبعث عن جسمها الضخم وروثها ودفئها رائحة حريفة ثقيلة طيبة.

ومد يده يتلمس دفء الفرن من الجهة الشرقية، ووقعت يده على فراغ. ففرك عينيه المتعبتين وهو ينظر إلى أكوام الورق والزجاجات القذرة من الحبر يكسوها الرمل الناعم الجاف، وأعواد الغاب تحت السكينة التى يبرى بها أقلامه.

هذه الذكريات الباطلة. والخوف والوهم والأكاذيب التى فى القلب، وعلى شفتيه كالنار المتقدة.

ومازلنا فى أول الليل.

وركع يصلى والشمعة تذرف آخر نورها، وطوته الصلاة بين ذراعيها، حارة متصاعدة تتدافع. ومشاعره تتدفق وتهضب. المشاعر المكومة المحبوسة تنبجس وتنفجر، فى كلمات من الحمىّ. يدعو إلهه ان يخلصه، أن يمد له يد معونته. وإلهه لا يسمعه.

يا يسوع. إنه فقد صوابه هذه الليلة. وسحابة شريرة أغرقت روحه بالخيالات. هذا النداء الشهى. هذا النداء

الشـهى. كم مـرة ينبـعث له. له وحـده. يدعـوه. مـرة من الظلمة فى ركن الصومعة، خافتا متآمرا يقظا فى الليل. ومـرةً من الريح فى الخارج، ضـاحكاً معابثاً، ناعماً بتلك النعومة اللاعبة المرحة، يرتعش لها جسده، كرعشة الموت، ومـرة فى صـوت أغن يشكو ويعـاتب. كيف يصـده؟ كيف ينحّـيه؟ ويأتيـه النداء ضـارعـا فى لهـفـة كـأنه يموت من الشـوق ثم يصـمت، لكى يراوده فجأة فى أنين مسـترحم عـمـيق. ذلك الأنين تـهـتـز له أحـشـاؤه، فى رعـدة تتنزى كانبثاقة الحياة نفسها فى لعازر القائم من الأموات.

والرب نساه. ويسوع الذى عرف آلام المجدلية فرحمها وغفـر لهـا، لم لا يصـغى لندائه الآن؟ لم لا يسـمـع له وهو يقرع بابه بانسحاق؟ وكم من مرة وضـع حول رأسـه هـالة من النور، بالحبـر الأحـمـر الجـمـيل، وكم من مـرة أنشـده التسـابيح والأشعار. فلماذا لا يراعى دموعه، الآن، ويطرد عنه الروح الشرير؟

وارتفعت إلى عينيه سحابة باردة من الدموع ثم ذابت فى حرارة من الملح المؤلم. لكن الثقل الذى يقدح صدره لم

يرتفع. والدموع لم تنهل بعد. وهناك شيء ما. جائع. جائع. ينهش قلبه وينز فى دمائه، ويلقى به فى نوبات متعاقبة من القشعريرة والسخونة، تلفحه وتكتسحه. وهو يصلى كأنه يحتفر حُفراً فى أغوار نفسه، ويتكسر كزنه فى زلزال، والصور الشريرة تقترب وتحوم حوله، ولا يجد رحمة، وربه قد هجره فى محنته، وتركه يصارع العدو بالأيدى العارية.

– أبونا توما.. توما.. توما...

تدعوه وتحتضنه بين ذراعين حريريتين، وتقبله على شفتيه بقبلة هادئة ندية كملمس زهرة غضة. يا رباه. هذه الطراوة. هذا الدفء اللين.

وضم حول صدره الناحل ذراعيه. لكن نفسه مثلوجة صادية.

كلا يا الهى. كلا. هذا الشيطان، يجربه.

وانحدر رأسه على صدره. ونظر إلى قلمه على الأرض فى يأس. وراحت يده تتلمس شيئاً بين الورق كأنها تبحث عن شيء تعرفه، حتى وجد صليباً فضياً صغيراً كان قد

أهداه إياه رئيس الدير. ونظر إلى الصليب قليلا بعينين شاردتين. وقرّبه من شفتيه المرتجفتين ببطء. رويداً وشفتاه يسعفهما شوق ممضّ كالملح. وفى حركة حادة مفاجئة اكتسح الصليب بشفتيه وقبّله فى عنف مر، قبلة متحطمة مهروسة، مرة ومرة وأخرى، ثم دفن رأسه بين ذراعيه بقوة. واهتز جسمه وتساقطت الدموع من عينيه أخيرا، حارة منتزعة كفلذٍ ممزعة من روحه مازال يقطر منها الدم. وهو يشهق شهقات عميقة خشنة، خاف لها هو نفسه، ويرتعش.

ولفظت الشمعة آخر أنفاسها، وتركته فى ظلمته يبكى. كلا كلا إنه يريد أن يعيش مع المسيح، يريد أن يحيا فى الكلمة المقدسة مع الله. لا شهوة له فى العالم الباطل. لا يريد إلا يسوع. الذى أحب وتألم، وغفر لمن أحبوا وتألموا.

امح من قلبى يا إلهى خطيئتى واغفر معاصىّ، روحاً مستقيماً جدد فىّ يا ألله، وقلباً نقيا اخلق فى داخلى.

وهدأ نشيجه رويداً واستند إلى جدار صومعته المظلمة، من غير أن يفتح عينيه.. واستسلم لهذا الضنى

العذب الذى يملأ روحه الآن. هذه الغفوة الكئيبة الممتعة، وهو يهمهم شبه نائم بترنيمة قديمة حزينة عن آلام المصلوب ودموع العذراء الواقفة تحت الصليب.

- يابونا توما.. توما..

فى صيحة مُحبة. صيحة حبيب قديم وجده نائماً بعد أن بكى. فضمه إلى حضنه، كأنها أمه تطابيه. وأراد الرجل أن يريح روحه الجريح بين الذراعين الناعمتين.

وكان النداء ينبعث إليه خافتا متكرراً لا يستكين إلى صمت، من الأرض ومن السماء ومن دمائه التي تنز بالتعب الساخن. والنداء يتعلق بعنقه فى ارتعاش ويدعوه.

وخرج إلى السفح ينظر مرة أخرى إلى السماء، وإلى الدير الكبير، وتنهد فى سأم وصبر. هذه الليلة. هذه الليلة التى لا تنتهى.

لكن لا أبدا لا شك هذه المرة. إنه متى يناديه. هذا الصوت مقبل من ناحيته ليس ثم شك.

ولم يجب على النداء هذه المرة، بل تسلل إلى الصومعة المجاورة فى خبث ساذج، ووقف بالقرب من بابها.

وانبعث إليه النداء من داخل الصومعة.

قفز إلى الباب. ووجد زميله ساهراً فى عبادة الرب يخصف سلة كبيرة من جدائل صفراء وخضراء، وهو ينغض برأسه، ويترنم شبه ناعس، وضوء القمر ينير صومعته. نظر إليه برهة ثم قال بصوت واثق، هادئ، من التهديد.

– أبونا متى. إنت كنت عم بتنادى المرة دى.

وكان الراهب الصالح لم يشعر بعد بوجود زميله على الباب، فانتفض بذعر، والتفت يرسم علامة الصليب.

– بسم الآب والابن والروح القدس، مالك يا بونا توما ياخوي؟ جرى لك إيه الليله دى؟ روح صلى يا بونا، أنا ناديتك ياحىّ؟ كلمة مسيحية ما ناديتك الليلة، روح صلى وارشم الصليب على وشّك. واطرد الشرير عنك يا بونا.

يصلى؟ يطرد الشرير؟

وقف بالباب صامتاً، ينظر إلى زميله، والشك يعتصره، والغضب يغمر أحشاءه بالدم وهو يسمعه يقول كلاماً، مسيحياً، كثيراً، عن حيل الشرير ومقدرة الرب يسوع،

عن التجارب وضعف الإنسان. لكنه لا يسمع شيئاً غير الريح في داخله، ونفسه تخرج عنه إلى الليل كقطيع ممسوس من الخنازير تندفع إلى الجرف وهي تعوى وتصأى.

ودار فجأة بلا كلمة، ذَرَع السفح إلى صومعته، وهو لا يرى ولا يسمع، ومسح شفتيه الجافتين.

انحدر القمر أخيراً نحو الغروب مُتعباً قبل مطلع الفجر، يلقى بأشعته الشاحبة الاحمرار وظلاله الطويلة عبر الصحراء وعلى البناء الكبير بقبابه المتتابعة، وقد ضاع في ظلها الرهاب الحارس، وعلى أنقاض الصوامع المهجورة، والعظام، والجماجم على السفح.

وكان الأب توما في صومعته يكتب بلا توقف، يكتب في مدٍ طويل متصل يرتفع أبدا. لا يفكر وإنما ينسخ كلمات لا نهاية لها، وجسمه ينبض بالتعب.

كان نائما، وقلمه في يده، مستمراً في حلمه بالكتابة. وما أبعد هذا النوم عن لياليه السابقة، حينما كان يأوى إلى الراحة، وهو يحس البر، وانه أدى واجبه في محبة

الله. لكنه الآن لا يستريح. بل عليه أن يكتب فى نومه بلا توقف كأن شيئاً يلاحقه، وهو مطحون، وعظامه تنز بالانحطام.

– توما .. بونا توما ..

كينبوع من العسل واللبن، ينفجر فجأة من صخر. كقبلة كلمسة من النار، كصرخة هاتفة من اللذة المتطلّبة.

وقفز واقفاً من نومه، فى لمح البصر، وقد صفا ذهنه صفاء باهراً، كل عصب فى جسده متوتر كأنه كان ينتظر هذه الصيحة. كأن شيئاً شده فجأة إلى يقظة قلقة مرهفة تخز فى العظم وتبريه، وهو يختطف السكينة التى يبرى بها أقلامه ويده تتقبض على كتابه المقدس الصغير بلا إدراك. ولفحت الريح وجهه، وعصفت الدماء بجسمه المرتجف، سوف يُخرس هذا الصوت، سوف يخرسه، ولم تمضِ بعد لحظة واحدة منذ أن استيقظ من نومه. أبدية من الغضب والعزم.

وتراجع الأب متّى عن سلته التى يخصفها، فى دهشة، ووقف نصف وقفة، وصرخ صرخة واحدة يا يسوع وعيناه

مفتوحتان من الذعر والدهشة. وقبض عليه الراهب وتلمسه بيده، وارتفعت السكين الحادة ثم شقت الهواء في عصف وهى تسقط، وغاصت فى الصدر بين الضلعين اللذين يحميان القلب، وكان كل شيء يسطع.

وعبر بذهن الأب توما، فى خطفة برق، أن رداء الأب متّى ممزق وقديم. ألم يكن الأبله يستطيع أن يرتقه؟ وعنده كل هذه الإبر وهذا الخيط؟ وخيّل إليه أنه يضحك بل يقهقه بملء صدره، يملأ جنبات العالم بقهقهته.

وتمزق الرداء تماما، وارتفعت السكن ثم هبطت مرة، مرتين، ومرة أخرى.

وسقط الأب متى على ركبتيه وتفجرت من صدره الدماء وخرجت من فمه حشرجة ممتزجة برغوة من الدم. وهو ينهج فى النَزع. وانفتح الصدر وتهدلت إلى الخارج العضلات الدامية ماتزال تنبض وترتعش كأن بها حياة خاصة.

ورمى توما سكينه وهو يتلمس الصدر المنفتح فى فرح شرس، ويزح الدماء النازفة بلهفة كأنها الشغف، وهو

يزوم، والدماء تئز فى رأسه، ويداه الجافتان الناحلتان تتلمسان هذه الدماء الحارة الناعمة اللزجة، وهذا الجسد الآدمى النابض الذى يموت، فى لذة كبيرة. يتحسس العضلات اللدنة المتهدلة التى ترتعش تحت أصابعه الغائرة، كأنها الرحم المفتوح.

وترامى فى أذنيه نداء قديم كأنه يأتيه من حلم حلو بعيد:

– أبونا توما.. توما..

وهى تبتعد، بنعومتها ودفئها، بصوتها اللين الحريرى المتمطى. وهو يتلمس الدماء اللزجة واللحم السخن، يتغلغل بجمع يده فى الجسم الممزق. وهى تتراجع وتبتعد فى نغمات أنثوية راضية:

– أبونا توما.. توما..

وعوى الذئب فى الجبل عواء طويلا قويا خائفا، كأن الفجر لن يطلع أبدا.


قبل السقوط

خرجت من الحارة المزدحمة التى كنا نسكن فيها منذ سنين، وحيطانها المتقابلة تغطيها دائما مساحة داكنة الرطوبة صاعدة من الأرض، متموجة الخطوط. والرائحة الثقيلة التى لا تنجاب عنها أبدا وتسطع فى آخر النهار، محسوسة. رائحة مياه الغسيل والمسح وبقايا الطبيخ وريش الفراخ وقشر السمك التى تصب ويطوح بها من النوافذ والبيبان والسطوح فى أى وقت من الليل والنهار على تراب الحارة، فلا يجف الوحل أبداً حتى على الرصيف، ورائحة ما يتركه الأطفال تحت الحيطان عندما يرفعون الجلابية ويُقعون فرادى أو جماعات، ويغيبون لحظة عن العالم فى نشوة مستغرقة خاصة، ثم يثبون، وينطلقون جريا إلى صراخهم ولعبهم الذى لا ينقطع حتى تلحق بهم أخواتهم البنات الأكبر قليلا يضربنهم على الرأس والكتف لكى يعودوا للبيت.

كنت قد صحوت من نومة بعد الظهر المتأخرة، وكنت بالبيجاما القطن وفيها خط مستطيل لامع، وصعدت السلالم القديمة بسياجها الخشبى الذى يلمع سواده من القِدم ومس الأيادى. وكان معى «جمهورية افلاطون» وأنا أطل من سور السطح على الحارة التى تتقلب فى ضجيجها وروائحها ونداءاتها.

الست سنية زوجة المعلم أبو دراع العربجى، فى البيت المواجه القريب أمامى، من تحت. تطل من النافذة القديمة المفتوحة، بصدرها الثقيل، مكشوفا فى قميص النوم الساتان الفضى ناصل النسيج المشغول بدانتيلا سوداء. كان صدرها مضغوطا على قاعدة النافذة بلحمه الأسمر الزيتى، أراه من فوق. وجهها يبدو منتفخا، وعيناها ثقيلتان قليلا من نوم بعد الظهر، فأضم بين ساقىّ صلابة استدارة غير مقلقة وغير ملحّة.

كان آخر نقيق الفراخ فى العشة قد خَفَت يتقطع ثم سكت. ومازال على السطح نور السماء الحارة وهواء المساء المبلول، والتفتّ إلى الباب الخشبى وهو ينفتح،

ومُنى تدخل إلى السطح تحمل بمشقة طشت الغسيل المثقل بملاءات السرير والجلاليب والفساتين وقمصان النوم الملوّنة والملابس الداخلية الرجالى البيضاء، مبلولة ومعصورة وملفوفة على بعضها البعض وفيها ثقل الماء ورائحة الغسيل والصابون النظيفة الحادة.

أسرعت إليها بلهفة، ووجهى ملئ بالدماء، والبيجاما الخفيفة تفضحنى على الرغم منى. وقالت بابتسامة خافتة وعينين فيهما خجل، ومعرفة: «سعيده» وكان صوتها صغيرا كأنه صوت قطة. وقلت لها: «عنك». حملنا الطشت الثقيل معا، وسرنا بضع خطوات حريصة متعثرة، جنبا إلى جنب واصطدمت ساقى بفخذيها الرقيقتين من وراء الفستان وأحسست البلولة فيه من ماء الغسيل، وكانت ركبتاها خشنتين ولونهما أكثر سمرة من ساقيها المجدولتين ومن قدميها الحافيتين القويتين.. ووضعنا الطشت على الأرض، ببطء، ونحن نبتسم. وعندما انحنت مال صدرها المخروطى المتماسك إلى الأمام، تحت القماش الرطب. وكان وجهها بجانب وجهى وهى تقوم

ناعما جدا ومسحوبا وسمرته مضرجة بلون داكن عند أعلى عظمتى الخدين البارزين، وشفتاها واسعتين ونضرتين.

وعندما كانت ذراعاها النحيلتان مرفوعتين، وهى تنشر الغسيل على الحبل الممدود بين عشة الفراخ وسور السطح، كان نهداها الصغيران راسخين، يرتفعان إلى أعلى فى حركة ثابتة، وكان بطنها هضيماً ومستوى السطح، كأنها ولد.

وحكيت لها عن جمهورية أفلاطون وقلت لها إن الذى يحكم فيها هم العقلاء والحكماء وليسوا العساكر، وليس فيها انجليز، وليس فيها حرب، وان الناس يجب أن يتعلموا الموسيقى ويعزفونها، منذ صغرهم. ولم أشرح لها معنى الموسيقى. فضحكت وقالت لى إنها تحب أن تتعلم ضرب العود معى، وأن تغنى وأنا ألعب على العود. وقالت لى إنها تحب أسمهان جدا وتموت فى أغانيها، وتحب رجاء عبده أيضاً. وكان شعرها قليلا ومعقوصا وملموما فى ضفيرة واحدة ومؤخرة عنقها دقيقة وبيضاء قليلا

وفيها شعيرات سوداء.

كانت تنشر الملابس والملاءات الثقيلة المتقطرة بالماء بيدين رقيقتين، محمرتين قليلا فى نور المساء، وكانت ملابسها الداخلية الملونة الخفيفة القماش بمقاسها الأصغر والفتحات الصغيرة غير المرتوقة فيها، مختلفة عن ملابس أختها الكبيرة، ومعروفة على الفور وتوجد بينى وبينها نوعا من المعرفة الحميمة والسر الساذج، دون خجل.

وقالت لى إنها بعد أن تخلص من نشر الغسيل ستغير فستانها وتشترى حاجات للعشاء من عم محمد البقال فى شارع راغب باشا.

ونزلت بعد أن قالت مرة أخرى بصوت خافت فيه انتظار: سعيده. ولما رأيتها تخرج من الحارة، وكنت أمشى، منذ فترة، على أول الشارع، هبط قلبى واستدرت من الناحية الأخرى. كانت مع ابن خالها الطويل الغليظ الشفتين الذى كان يزورهم كل ليلة تقريبا ويتعشى مع أخيها.

كنت قد قلت لها: ابن خالك هذا، على فكرة، أين يسكن؟

قالت: فى البياصة، بعد شارع ١٢. فى بيت ملك، عقبى لك.

قلت: مسافة بعيدة.

قالت: أخى يعمل معه. عند ميكانيكى سيارات فى البِيَاصة، كانت بينه وبين أبى معرفة قديمة.

قلت: والغريبة انه يلعب البلى مع أولاد الحارة الصغار.

قالت: هو هكذا. يحب لعب البلى، مع انه كبير. وضحكت.

وتيقظت غيرتى مرة أخرى، من هذه الضحكة. وكان ابن خالها له عينان مدورتان جاحظتان من محجريهما، ووجه كالعجين المتخمر، أبيض وبه حفر صغيرة من أثر جدرى قديم، وشفتاه مملوءتان.

وكانت أختها الكبيرة تزور أمي، وكانت دسمة الجسم طويلة وصدرها يكاد يكون مربعا ووثيقا فى البلوزات

الشفافة الضيقة التى كانت تحب أن تلبسها فتكشف تحت كتفيها القويين عن قميصها الداخلى الأسود اللامع دائما. وكانت تسلّم علىّ بيدٍ طرية لا عصب فيها، مرمية كأنها لا عظام فيها. وكانت تعمل فى فابريكة الغزل والنسيج فى كرموز وتدخل الجارة فى أول المساء بعد الشغل، وشعرها مفكوك متناثر. وكنت وأنا فى غرفتى الداخلية التي تطل على المنور، أذاكر الجغرافيا وأحل مسائل الجبر وأنقل قصائد جبران خليل جبران فى أوراق صغيرة مُقْتَطعة من فواتير أبى القديمة، أسمع الجارات، أحيانا، يحكين لأمى انها ماشية مع المهندسين فى الفابريكة. وكن يسكتن عن الكلام عندما أمر بالفسحة فى طريقى إلى دورة المياه.

وكان أولاد الحارة الكبار، صبيان البقالين والحلاقين والسباكين، يقفون مع تلاميذ المدارس الابتدائية الخائبين وعمال الميكانيكية الذين تسيل فى أيديهم النقود بلا حساب والذين لا أعرف ماذا يعملون ولا أعرف مَنْ هم، يتجمعون على أول الشارع أمام خرابة يحيط بها سور

من خشب قديم ووراءه أكوام الزبالة الجافة.

وعندما كانت تمر من أمامهم بجسمها الملئ الذى أحس، دائما، أنه متحرر وغير مكبوت وشبعان بالمتعة والعمل والخبرة، كانوا يسكتون فجأة وتتجه عيونهم إليها بحركة واحدة تلقائية، وكنت أعرف ما يفكرون فيه، ولم يكن لى بينهم أصدقاء، وكانوا لا يهتمون بى.

الحديقة الواسعة المزدحمة خالية كلها، ليس هناك فيها أحد غيرى. والليل هادئ ومشحون. وأكاد أتعثر وأنا أهبط بسرعة على الأرض قاتمة الخضرة، بين حشد أشجار قصيرة ومظلمة أغصانها متقبضة على بعضها بعضاً، كأنها تتآمر. كانت كل شجرة حولى يقظة وصامتة، أعرف أن فيها خطرا، فلا أجرؤ أن أمد يدى لأمسك بها.

وكنت أعرف أننى فى الشلالات، لكننى لم أكن أعرف مع ذلك هل ركبت ترام الجمرك أم الرمل، وهل هذه الأرض المشجرة المرتفعة التى أتدحرج عليها، وأكاد أسقط، فى رأس التين أم في الشاطبى. وأشجار النخل

الملوكى الشاهقة بسيقانها البيضاء المضفورة وتيجانها الدائرية المفروشة تهتز فى السماء الخفيفة. وأرى خلفها وقريبة جدا منها أسوارا من الحجر الأحمر المتين وبوابات عالية مقوسة العقود، وأبراجا غامضة الأركان فيها نوافذ مستطيلة متقابلة مفتوحة أمام بعضها بعضاً، وتبدو خلالها زرقة ليس فيها نجوم، وأسأل نفسى هل هذه سراى رأس التين أم ملعب الملك. وأشم رائحة البحر القريب، عطنة وأنفاسها حارة ومائية.

وأهبط، أخيرا، باندفاع، إلى وهدة الأرض المغطاة بخضرة أكثر وضوحا وشحوباً، مقصوصة وخشنة المظهر. وأحس تحت قدمى قوة التربة المتموجة ببطء وثقة. عتمة آخر المساء تحت صف الأشجار المتقاربة، وللهواء فى أوراقها الكثيرة حفيف أجش. وأكاد انزلق إلى ترعة ضيقة جدا وفى قاعها ماء قاتم يجرى بصمت وسرعة وينعكس على سطحه اللامع السواد نور لا يكاد يستضئ، كأنه عتمة أخف قليلا مما حولها، بين قمم الأشجار، من سحابات بيض، ثغرات مفتوحة فى سماء الليل.

أثب، خطوة واحدة، ولكنها لا تنتهى، على الممر المائى الرفيع، وكأنى لا أهبط أبدا على الشط المقابل، وأستمر مرتفعا فى الهواء، فى وثبة صغيرة جدا ولكن لا يفرغ زمنها أبدا، لا أصل أبدا إلى سفح الأشجار المصفوفة التي تقف تنتظرنى، تترصدنى. أحلّق، وأعرف أنه يجب أن أصل، بأسرع ما أستطيع، إلى شيء ما، ضرورى.

الشارع المسفلت العريض الذى تقف عليه أسوار المدافن، صامت وفسيح. أنظر إليه من تحت وأنا أجرى فى نعومة، كأننى أشق بلا جهد موجا مفتوحا أمامى، وجيش العابرين حولى، لا صوت له، وغير مرئى، ووثيق الصفوف، وسوف تنطبق عليه الأمواج. وكنت هادئ الأنفاس لا أحس ضربات قلبى. وقلت لنفسى اننى الآن لا أعرف أين قبر أبى، وأننى لم أزره مرة واحدة منذ أن دفن فى حفرة عميقة طويلة، وكنت أريد أن أدفن نفسى معه ولا أتركه، ولما خرجت إلى هذا الشارع كان نور الظهر الساطع وهواء البحر يجفف دموعى.

الملائكة الرخامية من وراء أسوار الجبّانات تحلق معى

فى الأفلاك العلوية، صلبة وبيضاء، أجنحتها المبسوطة الثابتة ووجوهها الجميلة كأنها تبتسم لى أنا وحدى.

وتحت رفيف الملائكة أرى العسكرى بحلته السوداء التى تلمع فيها أزرار نحاسية يومض بعضها وينطفئ بعضها، يسير بثبات، وبندقيته العتيقة الطراز على كتفه كأنه جامد فى مكانه، لا يتحرك، ولكنه يسير بخطواته البطيئة لا وقع لها على الأسفلت، ونحن جميعا معا، الملائكة وأنا والعسكرى، بلا غرابة ولا سؤال، كأننا فى بطن مركب مغلقة تخوض بهدوء عباب بحر واحد مياهه ساجية، ولكننا لا نرى أثرا للبر. وكأن حياتى نفسها تتوقف على الوصول إلى شط البحر.

أريد أن أسأل العسكرى لماذا المصابيح مطفأة؟ هل نحن فى غارة؟ فأنا لم أسمع صفارة الإنذار، ولكننى أعرف أن العسكرى لن يجيب، وأنه لن يسمعنى، وأنه أيضاً لا يعرف، بالتأكيد.

أريد أن أكسر هذ الطوق. دون سؤال. هذا محتوم.

وعندما أنحرف فى الطريق الواسع الخالى إلى اليسار

فليس ذلك، على نحــو مــا ، بإرادتى. الشـــارع مظلم، ومرتفعات الشلالات إلي جانب، بأشجارها العجوز القوية فى الليل، وإلى جانب آخر، جدران مخازن فورد العالية أحجارها رمادية وضخمة تقطعها النوافذ الكبيرة المغلقة بزجاج شديد القتامة تلمع عليه من الخارج قضبان حديدية سوداء، وليس فيها نور. ولا تنتهى. الأبواب الحديدية الهائلة عليها أضلاع المتاريس المتقاطعة، وتحت الجدران صف واحد متلاحق من سيارات الأتوبيس الزرقاء منتفخة البطن، سطوحها مقوسة وداكنة فى العتمة التى تتكاثف وكأننى أحس لها قواما وجسما .رائحة المطاط القديم فى عجلات الأوتوبيسات المرصوصة تختلط بنفث التراب السخن من الشلالات والخضرة الجافة وعبق الزهور اليابسة الحمراء التى تفتتت وغطت بقعا واسعة تحت الأشجار المحترقة من الشمس طول النهار. وأنفاس البحر الليلية تأتى إلىّ من فوق المدافن الشاسعة المزدحمة بالموتى، وأعرف أنه ليس لى موتى فيها بعد، وأعرف فى الوقت نفسه أن أبى،

وأخى الصغير الذى مات بالتيفود وأختى التى ماتت محترقة، قد دفنوا فيها، فى مستقبل لم أضعه موضع سؤال.

كنت قد رأيت مُنى تخرج من الحارة وتستدير حول البيت المهدوم، واضطرب قلبى واستدرت بحركة لا أكاد أحسها نحوها، وتوقفت حركتى فجأة وكأنما غاضت الدماء من جسمى كله. كانت تسير بسرعة وقريبة جدا من ابن خالها، وساقاها العاريتان تلوحان ناعمتين ورقيقتين تحت فستانها الخفيف الذى يسقط إلى ما فوق الركبة بقليل، واسعا يهتز بإيقاع رشيق ومتوفز. ورأيت فى عينيها نظرة لا يمكن أن يشتبه معناها. نظرة البنت العاشقة التى تتعلق بحبيبها، فيها هذا الفضول الآسر والجاذبية الأولية التى لا مفر منها. جاذبية الأرض، جاذبية النجوم فى مسارها المضروب. نظرة ثابتة، لا تتحرك، لا تستطيع أن تتحول، وفيها نسيان تام للعالم كله من حولها، ومعرفة بأن العالم هناك، صحيح، ولكن ليس له أدنى أهمية. واقتربت بوجهها منه، وهمست له فى أذنه

بشيء. هل كانت ترمقنى عندئذ بطرف عينها فى حركتها المندفعة بعيداً عنى؟ سمعتها تضحك بلا مبالاة كأنها قسوة. وكان الولد يضحك أيضاً دون أن ينظر ناحيتى. وعرفت أخيرا، معرفة قاطعة للقلب، أننى، فى النهاية، جزء من هذا العالم الذى ليس له أدنى أهمية.

وعرفت، وأنا مخدر القلب بعد ضربة الجرح، أن فى هذه القسوة مع ذلك علاقة ما بينى وبينها، بينى وبينهما، علاقة حميمة، وحسية أيضاً، وقلت لنفسى إننى لن أقبل هذا الارتباط أبداً، ولن أخرج إليها أبدا، ولن أنتظر، حتى، أن تأتى إلىّ عن طريق الصدفة أو عن طريق التدبير. وقلت لنفسى إن القسوة قائمة، هناك، وإن رفضى لن يمسّها ولن ينفيها. وقلت لنفسى ان العام قسوة واحدة متصلة.

أسير ببطء، ثقيل الصدر، ولا أعرف متى غادرتنى الملائكة الحجرية، وفوقى سقف منخفض، وكأننى فى سوق مهجور، أمر أمام أبواب خشبية قديمة مغلقة على الناس النائمين. والعساكر تقف على الأبواب، ملابسهم

سوداء مهدلة، وعلى أكتافهم البنادق طويلة الفوهات. لا أرى وجوههم تحت الطرابيش المكسوة بقماش أسود أيضاً له حافة طرية دائرية على الوجه وعلى مؤخرة الرأس. كل باب عليه عسكرى، يقف بجمود، لا يهتم بى.

ويهجس بقلبى رعب مكتوم وغضب مكتوم، وأعرف بيقين وإحساس بالجريمة، أنه محرم علىّ أن أمر بهذه الطرقات الداخلية. وأننى أقترف إثما كأنه الإثم بالمحارم.

وأعرف أن النائمين يحسون بى. مصابيح الغاز القديمة فوانيسها المربعة تشتعل تحت السقف بشعلات مهتزة. وأنا أعبر هذه الممرات الداخلية بين البيوت القديمة الحجرية كأنها من بيوت المماليك الأثرية التي يلجأ إليها الناس للسكنى والحياة، بعض أحجارها قد سقطت وتركت فجوات مشعثة مظلمة وغاصة بالحياة، تعشش فيها طيور أو لعلها خفافيش، وتتدلى منها أعواد قش جافة لا يتطاير بها الهواء. والممرات مبلطة وعليها تراب ويهب فيها هواء بارد، وحواف البلاط متعرجة جمدت بينها خطوط الطين الرفيعة، صلبة وجزءا من جسم البلاط.

وأنا أريد أن أنادى، أريد أن أوقظ الناس، أعـرف أن هناك ما يهددهم ويهددنى ولا أعرف كيف أقوله. أريد أن أصرخ، أريد أن أجأر، أريد أن تهتز الجدران والأبواب المتهاوية تحت صيحتى التى تختنق وتخنقنى.

أعرف أن الناس من وراء هذه الحيطان القديمة كأنهم موتى. ولكنهم ليسوا موتى. وأن الأمهات نائمات على المراتب القديمة جافة القطن ملقاة من غير ملاءات على حصير الأرض، وأنهن يغطيهن أولادهن بملابسهن القديمة وبأذرع أنهكها الحنان والقلب المكسور. وأعرف أن الرجال قد ناموا كالموتى، عيونهم مفتوحة، يطبق على صدورهم دخان المعسل والكد والأفيون الردئ.

وأحس قلبى مقطوعا شقين، وجافا لن يرتوى أبداً.

وكانت قد قالت لى: لكنك لا تعرف كيف تغنى، هل تعرف أن تقول أغانى فريد الأطرش؟.

واقتربت بوجهها منى. وكان فمها كبيرا وحمرة شفتيها طبيعية طازجة، وأردت أن أقبلها فى فمها، وقالت لى: ولكن ماذا تعرف، أنت؟ أنت لا تعرف شيئاً أبداً ولا

أراك أبدا مع أولاد الحارة. ماذا تفعل طوال النهار؟.

كنت أعبر شارع ١٢. وكانت قضبان الترام لامعة تشق بلاط الشارع الخالى، والدكاكين كلها مغلقة، والمصابيح الكهربائية متقدة من وراء زجاجها المطلى بالأزرق ضوءها غريب ومحزن ولا يستفيد منه أحد.

وعندما نظرت إلى أعلى، فجأة دون سبب، رأيت الشرفة ذات القاعدة الرخامية الضيقة بسياجها الخشبى الذى يلوح أن طلاءه القديم قد تعرى عن الألياف اليابسة. كان القمر الأحمر الباهت المدور ضخما وجسيما ومعلقا على سطوح البيوت المقابلة كأنه ملصق بالسماء اليابسة، ضوءه القليل لا يكاد يستبين.

وكانت الشرفة فى الشارع الهادئ بالليل تهتز، ثقيلة تحت حشد من الناس الذين يلوّحون بأيديهم ويشوّرون، ويفتحون أفواههم ويهزون رؤوسهم، دون أن أسمع لهم صوتا. ومالت الشرفة إلى تحت، ببطء، وكأننى أسمع صوت تقلقل الخشب يُنتزع من ملاط الحائط، ولكنى لا أسمعه. وسقطت الشرفة إلى الأرض، وسقط الناس. ولم

أسمع اصطدامها بالشارع ولم أسمع صراخهم، ولم أسمع الأجسام ترتطم بالرصيف كأن هذا كله لم يحدث. وهو قد حدث.

اندفعت إلى الباب الخارجى المفتوح، بحديده المشغول على شكل أزهار وأوراق وأغصان متعرجة، وكان كل شىء داخل البيت هادئا. وصعدت السلالم الجديدة المصنوعة من الأسمنت المحبب. وكنت أغالب خوفا من حضور قوى مهدد يكمن فى ظلمة بير السلم.

وثبتُ الدرجات اثنتين اثنتين وخبطت بلهفة على باب الشقة. وسمعت صوت الخبط على الباب يدوى مرتفعا له أصداء تتضخم وتوقظ سكان الشارع كلهم. وفتحت لى فلاحة شابة تغطى جانب وجهها النائم بطرحتها السوداء.

لم أستغرب أننا كنا فى أول الصبح، والشقة كلها فيها نور شاحب وفيه وخامة يدخل من وراء ستائر بيضاء ثابتة الطوايا تنتهى بشراشيب داكنة الحمرة. وفى الفسحة مائدة مدورة كبيرة خشبها ضخم ومصقول ومطعّم بعروق ذهبية، وفوتيهات محشوة ومنجدة بالقطيفة ولونها كالنبيذ

الثقيل ملتفة حول استوديو مريح كأنه السرير مكسو بنفس القماش النبيذى المنتفخ بقطنه الوفير، والسجادة على البلاط الذى يبدو من تحتها، كثيفة، وقدمى عليها لا صوت لها.

وكانت نائمة أو ممدّدة، على السرير، لا أعرف، تحت أغطية كثيرة وناعمة وغنية النسيج. وكنت أعرف أنه لا سيقان لها، ولا وجه لها، وأنها أنثوية، ودمثة الجسد، ولا أستغربها، ولا أنفر منها، ولا أرفضها. بل أحس أنها تجتذبنى إليها، كأنها تدعونى. وكانت حية ولكن باردة الدماء، وقد استكنت فى الفراش، وكانت تنتظرنى.

وعندما اقتربت منها وانحنيت عليها كان قلبى واجفا ولكن يدىّ ثابتتان. ربتّ على كتفها الغض وكأنه مكسو بفروٍ أبيض حىّ، تغوص فيه أصابعى. وكانت داجنة وراضية وعيناها مدورتان فاهمتان. ومن خلال الفرو كنت أحس تحت يدى بكتف امرأة، ناعم الدوران. وكانت تخرج أصواتا أليفة، شبعانة، دون كلمات. وكأننى أقبل هذه الأصوات وأنا أسمعها تتردد فى فسحة البيت الذى ما

كـاد يصــحــو من النوم، أصــواتا تكاد تكون إنســانيــة، نسائية، ولكن فيها هرير مكتوم خافت، ومواء صغير، ونقنقة هادئة تـأتى من مياه ضحلة ساكنة. ولكن صوتها كان فيه أيضاً بحة، كأنها توشك أن تتكلم، لأول مرة فى حياتها، من غير جهد ولا معاناة، ودون كلمات.

وصرختُ، صرخة واحدة.

على الحافة

أرى المئذنة القديمة ترتفع، بصعوبة، فوق أنقاض الجامع الذى لم يبق من جدرانه العريقة إلا أكوام من أحجار ضخمة. وعلى حافة شرفتها المكسورة، قريبا جداً منى، أمام عينى، يقف الغراب، أسود اللون تماما. حتى منقارة المدبب كان حالك السواد، مطبقا.

وانتظرت، وأنا أكاد ألمس بيدى دقات قلبى، فلم ينعق الغراب.

كان راسخا ومطوى الجناحين، كأنه حجر، لولا أن عينيه تتقدان بنار مركزة. فصّان من جوهر دجّى.

وتجيش فى قلبى فتنة، ونفرة. ولكننى مرصود.

كنت قريبا جدا، لأول مرة بهذه القربى، من شىء له كل هذه الغرابة، وكل هذه الألفة معا. كأنما كنا معا فى حلقة مضروبة علينا، بلا فكاك.

وعرفت أننى عدت إلى غمرة سنوات الحب الأخرس

وأشواق الصبا التى لا مثيل لنور سذاجتها، أن تكون هذه الأرض هى أرض العدالة وأن تعود إلى الناس.

كنت قد خرجت إلى جسر النيل، فى عز الظهر، ومجد الأمواج الحمراء يتقلب فى عرامة الفيضان. السماء المحترقة بالنور، والأشجار الهفهافة، وبيوت الفلاحين المكومة، كلها معقودة أمام عنفوان هذا الانصباب الذى يدمدم بين جسوره العالية فيفرض على كل شىء مهابته.

وكانت الغربان تعرف، مثلى، شجرة السنط الوحيدة على رأس الجسر الحجرى الممتد قليلا إلى داخل النهر. كانت المعدية الصغيرة تخرج منه إلى الشط الآخر البعيد في التحاريق. أما الآن، وحتى تخفت غضبة الفيضان، فهى مقلوبة على بطنها، متربة.

كنت أتسلق جذع الشجرة الملتوى وأنتزع السائل اللزج من جلدها العتيق فيتماسك قوامه بسرعة بين يدى، بعد أن أجرحها فى رفق، كأنها جراح الحب. وكانت الغربان تأوى إلى فروعها النحيلة، وتتنادى بصرخات لم يكن يخيفنى نعيبها، وتخفق بأجنحتها السوداء، سحابات

حية. وكأنها، هذه الغربان، فهمت، وكأنها تسخر من نفسها معى. لكننا لم نكن قط أصدقاء. وكان الغراب الحالك السواد هو شيخها، ويعرفنى.

أقف، بلا حراك، تحت المئذنة لا أستطيع أن أحول بصرى عن الغراب، وحدنا فى العالم كله.

فى جدار المئذنة نافذة دائرية منقورة فى الحجر الكثيف، سدت بألواح من الخشب الخشن ودقت عليها المسامير. ورأيت قريبا منى جدا، صدأ الرؤوس الحديدية الغليظة تآكلت حوافها، وألياف الخشب القديم قد اسودت بطبقات من تراب المقطم وعادم السيارات. الهلال المعدنى بعيد فوق ذؤابة المئذنة، معوج القوس. كأننى سمعت نفسى أقول لنفسى: سقطت كبرياؤه وثب الغراب الضخم، على غير انتظار، دون أن تصطفق جناحاه، دون أن يبسطهما، واصطدم، دون صوت، بالخشب الذى يسد النافذة، وغاب فيها، اخترقها، دون أن ينفتح له فيها أدنى شرخ. مازالت النافذة مسدودة.

صلصلت أجراس مترو حلوان وهو يتدحرج على

قضبانه، بقلقلة يهزم هديدها فجأة وأعرف بلا دهشة أنه يتجه إلى المقابر. نفثت السيارات المتلاصقة المقتحمة بمقدماتها فى كل اتجاه، نافدة الصبر. الحوذى القصير المتين يشب على عربته الكارو التى تنوء بأسياخ حديد التسليح المشعثة، ويثبت قدميه بمقدمة العربة المتأرجحة ويشد العنان ليوقف حصانه الكثيف الكفل. الحصان المغمى العينين يزفر فجأة فى صدمة الكبح التى لا تطاق. الناس ينسكبون سيلا واحدا بلا انتهاء، فرادى ولكن فى مجموعات متدافعة ينثالون، كالعجين الكثيف، بين السيارات وجنب خيل العربات وفوق القضبان وعبر الأرصفة وتحت الدكاكين وعلى أبواب البيوت، فى الحر والعرق والتراب وضجة النهار متنافرة الأصوات.

فى قلب هذا الإنهمار من زحمة الناس، عالم آخر، منفصل ولكنه وثيق الصلة بنياط قلبى، أعرف أنه عالمى الذى ليس لى غيره. فقط أحس بضغطه يزداد فداحة وأعرف أننى لا أريد الخلاص من هذا الثقل.

وقبل أن تندّ عن حلقيِ المسدود صرخة كابوس الفجر

المعتادة التى أعرف أنها قادمة الآن، تبدأ متحشرجة، ثم تنفجر، تدوى فى الصمت بجنون لا يعى شيئاً، بجموح يهتز له أول الصباح، قبل أن ينفلت الوحش المتربص دائما فى قلبى يكسر شرخا فى جداره بصيحة زئيره المتصلة، وجدت نفسى أسقط فجأة، درجة كاملة من درجات هذا العالم. لم أترك المئذنة القديمة ولا ضجيج الناس المحتشد وكنت فى الوقت نفسه، فى مساء الطرانة ومعى «لنده»، أمام الغيطان.

ولأول مرة وحدنا، نسير على جسر النيل، ونعرف أن الحقول حوالينا خالية. الحدأ والغربان تطوف فوقنا فى السماء الحارة التى تستروح طراوة الغروب.

وكنا معا، دون كلام، نسترق النظر إلى الغيطان، نستوثق أنه ليس فيها أحد من الفلاحين. كنا قد خرجنا وحدنا دون أن نقول لأحد. وكنت أحس فى هذا ما يشبه الجريمة أو المروق، على الأقل. ولو عرف الأهل فماذا يمكن أن يحدث؟ كان هذا الخوف يحفز القلب، والمغامرة غير محسوبة الوقائع.

كان التراب الهش يثور تحت أقدامنا فى هبوات ترتفع قليلا ثم تنعقد لها سحابات صغيرة حول أرجلنا، وكانت هجسات مولد الصبا الصعب تملأ نفسى برغبات لها ثقل يهب ببطء كأنما لن يصل أبداً إلى قرار.

كانت لنده تدفع بساقيها فى الشبشب الذى يبدو ثقيلا وأجنبيا وغير مستقر فى قدميها، فقد كانت تمشى، عادة، حافية.

وقلت لنفسى: ومع ذلك فقد كان أبوها صرافا محترما ولها أولاد عم فى الهندسة والزراعة.

وكانت كل يوم تغسل قدميها وتحكّهما بالحجر الخفاف حتى يحمر الجلد ويعود إلى نعومته. دخلت مرة إلى بيتهم فى الليل، وكانت عارية الساقين أمام الطشت وبيدها الابريق. ورأيت نعومة ساقيها كأنما أحسستها بعينى. وعندما كنا نجرى ونحن نلعب عساكر وحرامية مع أولاد العائلة وبناتها، كنت أتعمد أن ألمس قدميها بقدمى الحافيتين أيضاً.

كانت لها ضحكة من القلب تنطلق دون عناء، من فيض

السعادة بالشباب. ضحكة بنت تشتعل بنضج أنوثتها. بينما كنت لا أعرف كيف أضحك.

كنا ننزل الآن، نكاد نتدحرج ونقع، بسرعة متزايدة الإيقاع، من حافة الجسر إلى فسحة من الأرض على الشط مباشرة. وسمعت غرغرة المياه الحمراء وهي ترتفع بالفيضان، كأنها محسوسة، تحت شقوق الأرض التي تتسع رقعة البلل فيها. غداً سوف تغيب تحت المياه المتصاعدة.

كان المغرب ساكتا إلا من نعيب الغربان على شجرة السنط العالية، يصل إلينا من بعيد. وكانت هذه الناحية من الجسر على غير طريق عودة البهائم من مرعاها فهى صامتة وموحشة، وكنت أحس الغيطان منهكة بعد صهد النهار. شواشى الذرة لها وشوشة وحفيف لا يكاد يستبين.

وكأنما على هذا الجسر نفسه، وكأنما على مقربة من شجرة السنط هذه نفسها، وقف محرك السيارة فجأة وهبط طنينه إلى الصمت. كان الطريق فى أول اليل سخنا

من حر يونيو الثقيل، يمتد بين سور متخفض وبيوت المقابر التى تبدو مبهمة ملتبسة، أبوابها الحديدية على شكل غصون متعرجة وأزهار يومض من بينها المغيب القاتم. امتدادات الأرض تتناثر عليها الشواهد القائمة والمائلة، والمكعبات المحدبة، مصفوفة ومتناثرة، أطول قليلا من الجسم المدفون، وبينها فراغات مرهوبة. وكانت القباب العالية من ورائها كتلا من المعمار كأنما لا وزن لها، تسبح، داكنة، بازاء السماء التى تبدو خاوية وخفيفة. صخور المقطم معتمة ونائتة الحواف، ومصابيح الشوارع الصاعدة متباعدة، بقعا مدورة بضوئها الأزرق الباهت.

عندما فتحت باب السيارة كان انتفاضها المتوتر قد خبا أخيرا. وسقطت قدمى على الطريق كأنما بلا انتظار، كان الطريق أخفض قليلا مما توقعت، وثارت تحت خطوتى عفرة صغيرة ظلت معلقة حول ساقى، ونفضت رجل البنطلون وسمعت السائق:

– قُرَنى بيته بعيد يا بيه.. والسيارة ليست لها سكة هنا بعد الآن.

قلت: لا يهم.. نسير على أرجلنا.. يالله بنا .. على بركة الله.

ثم قلت: المهم أن نعثر على المفتاح.

وفكرت ان أمامى ليلة طويلة من العمل، من وراء زجاج النوافذ المسدلة عليها ستائر سوداء متهافتة القماش. وقلت لنفسى إن البرقيات يجب أن تصدر فى الصباح، من غير جدوى، إلى كل العناوين فى مشارق الأرض ومغاربها تستصرخ بيأس صادق وتعلات كاذبة، وفكرت أن الصحراء في هذا الليل بلا رحمة، وكنت أمقت السماء وهى تنقضّ على جسمى الذى لا منعة فيه، فى هذا العراء.

لم نكن قد عثرنا على المفتاح، وقلنا إن هناك نسخة منه مع الخفير الذى يسكن فى بيوت المقابر، وقلنا نذهب إليه اذن، ثم نستدعى دورية السهر بالتليفون بعد أن نعود. وكنت أعرف وأنا على أول طريق المقابر الموحش أننا لم نرسل البرقيات قط فى الصباح التالى، وكنت عندئذ أحس أنفاس القاهرة المحبوسة تتردد فى صدرى

والمدينة أصبحت شاسعة صامتة كما لم أعرفها تصمت أبدا، والاوتوبيسات الثقيلة الحمراء تنطلق بهوج فى الشوارع الساكتة وتميل بجانبها من السرعة، نصفها فارغ وركابها لا يتكلمون. وكنت أرى الهواء الذى يخشخش بورق الصحف والتراب الخفيف على الأسفلت. كانت الميكروفونات تردد في هذا الصمت بيانات ميتة لا يسمعها أحد. كان توقع وصول المساء يثقل القلوب بعبء قابض.

ووقفت من جديد تحت شجرة السنط القديمة وقد غلظ جذعها، وثقلت فروعها وتراكبت، وهى الآن تصعد من تراب الجسر الذى لم يعد يدك بالحجر والطوب وظهرت فيه حفر هشة، وامتد إلى جانبه طريق جديد مسفلت فى وسطه خط عريض من أثر جريان عجلات السيارات، وعليه أعمدة رفيعة فى كل منها مصباح كهربى واحد صغير أصفر مشتعل فى عز النهار. كان النيل قد روض الآن، وصمت، وينسكب نحيلا ومنخفضا. وقلت لنفسى هل انقضى فعلا عصر الرؤى، وانكسرت؟، وقلت لنفسى:

لا أعرف بعد كيف أخلص من الأحلام الرثة، وقوالب الكلام.

كانت قد جفت قشرة هذه الأحلام وتخمرت عجينتها الدفينة، وكنت أحسها دفينة وموجعة كجراح الحب. ومددت يدى إلى الشجرة العجوز وعرفت أن عصارتها قد يبست، طالما صنعت من كرياتها ملء زجاجات الصمغ عاما بعد عام، ألصق بها فى كراسات المدرسة صور دستويفسكى وعرابى والطهطاوى وكيتس وتروتسكى وشكسبير.

كانت الشجرة مهجورة ليس عليها غراب واحد ولا تدور حولها العصافير الصغيرة القلقة التي لم أعرف أبدا ما اسمها.

فاجأنى السكون المطبق على كل شىء. جسر النيل، وسعة الغيطان، وحوارى القرية، وحنفيّة الماء المكرر الذى يتقطر على التراب، كلها صامتة الآن.

أزيز عجلات سيارة فيات لامعة تمزق فجأة بجانبى كأنها تسير فى فلك خاص محاذ للنيل ولكن لا صلة

بينهما. سلسة من سيارات النقل المرتفعة الجدران لها مقطورات مسطحة، حمولتها مربوطة بحبال قوية، وفوقها حمال خاسف الجسم نائم كأن عظامه مكسورة، ومكومة، يطير الهواء بجلبابه الذى لا لون له.

كان هذا الصمت منذرا. لم أرَ فى السماء الحدأ المترصدة التى كانت تحلق فى دوائرها الواسعة، ولا الهداهد التي كانت تنتقل بسرعة من الغيطان إلى الشجر، ولا مجمع الغربان.

وسمعت نفسى أسأل: أين الطيور؟ أين هدهد سليمان؟

وقال قريبى وهو الآن فى بكالوريوس العلوم: طبعا يا سيدى اختفت.. المبيدات الحشرية.

وطاف بذهنى من غير مناسبة أنه فى الأحلام تأتى كلمات. وأفكار كل يوم، وكأننا فى الحلم نزجى وقتا مملا بكلمات لا نقصد منها شيئاً.

وقلت لنفسى: قطن الحكومة له ضريبة فادحة.

عندما إلى عجلة الساقية القديمة المرمية على الأرض،

جلسنا على خشبة عريضة متربة، أحد طرفيها مرتفع يستند إلى حجر كبير ساقط من الجسر، والطرف الآخر يهبط إلى الأرض، وقد نال من الخشب عطب، فتحللت عضلاته، ولكن بقى عودها قوى الأسر. العجلة الضخمة تكاد تسقط على جنبها، فى توازن يمكن أن يكون منذرا لولا أنه عريق الثبات، غاص جانب منها فى الطين الجاف، فى هذا الوضع الغريب، فى هذا الغروب الغريب، برهبة الأشياء المهجورة التى يرودها حضور غامض. مياه النيل العريض تصطفق بصوت اصطدامات مائية متعاقبة ومتغيرة الإيقاع فيخفق لها قلبى فى توجس وفرح، وتنعكس السماء على الطمى الداكن الاحمرار. انحسر طرف جلابيتها عن كاحليها اللذين أدهشتنى دقتهما ونعومتهما، وأثارتنى، وهى تجلس، وتسوى نفسها على انحدار العجلة الخشبية فيبرز أعلى فخذها من وراء الجلابية مدورا ومحبوكا يبدو لعينى غض الملمس. وفى نور المغرب رأيت وجنتيها متضرجتين بنار نضرة. وكانت أنفاسها متسارعة، وهى صامتة على غير عادتها، وعيناها

تلمعان بسواد ساطع. كان هذا غير الأحمر الذى أعرف أنها تضعه عندما تبلل قطعة حمراء من القماش المشبك تبيعها البلانة لصبايا القرية ونسوانها فيبللنه بالريق ويمسحن به الخدود والشفاه. وكان ذلك هو زواقها يوم الأحد عندما تأتى إلى الكنيسة. وكنت أعرف أن أمها تدعو عليها وتستمطر لها التوبة من الله عن هذه النيلة التى تعملها فى نفسها، وتدعو لها بالعَدَل وابن الحلال الذى يكفيها ويشكمها، وأنها هى تحلف بحياة الصليب أن هذا اللون ربانى وماذنبها فيه، ثم توقد شمعة أخرى للاستغفار من الحنث بيمين الصليب، وتصلى بحرقة وتترقرق عيناها بالدموع فى القداس.

وسمعتها وهى تقول: أنت ستعود إلى الإسكندرية بعد قليل أو كثير، فى آخر الصيف، لتذهب للمدرسة. أهذا ضرورى، المدرسة؟ لماذا لا تشتغل، وتكسب؟ ولم أجرؤ على فهم ما تقول. كانت جلابيتها الفلاحى الملونة تسقط الآن على جسمها المتوفز، كأنها حيوان فى عز فتوته. كانت فعلا حيوانا أنثويا فى عنفوان الشباب. وفكرت أنها

تكبرني على الأقل بثلاث أو أربع سنوات. وقلت لنفسي إن هذا لا يهم.

وكأنني رددت عليها: أشتغل، أنا؟

وسمعتها تقول: آه تشتغل، وتأخذ ما تريد. ألست رجلا كالرجال الذين يشتغلون، ويكسبون؟

ولم يكن قد خطر ببالي أنني لست كالرجال الذين يشتغلون ويكسبون. ولكنني لم أكن أعرف كيف أجيب. وكنت أعرف أنني هنا في نطاق خاص لارد عليه، يخالف كل ما أعرفه. وخيل إلي أنني قلت: عندما آخذ التوجيهية، وبعدها الجامعة أيضاً سأشتغل طبعا.

وسمعتها تضحك وعرفت في ضحكتها مرارة لا شأن لها بي: يوه.. موت يا حمار.. لغاية ما ييجي لك العليق..!.

ورأيتها تقوم فجأة، وانسدلت جلابيتها على جسمها الذي توتر بيقظة مفاجئة وهي تصعد الجسر الوعر برشاقتها النافرة، وردفاها يتحركان في إيقاع متناوب سريع، وهي تمد ذراعيها بتوازن حرج، وأرى، وأنا تحت، صدرها الذي لا يسنده شيء يهتز وهي ترقى الجسر،

وتثب إلى سلامة حافته.

وأنا أيضاً أتسنم انحدار الجسر لا أصل أبدا إلى أعلاه، خطواتى لا تنتهى أبدا والسماء عالية، ولا تبدو لى غرابة على الاطلاق في هذا الصعود المتصل الذى لا بطء ولا سرعة فيه، كأننى لا أتحرك، وكأن الجسر ما ينى يزداد علوا كلما واصلت الارتفاع عليه، لا دهشة ولا تساؤل، بل إرهاق طويل. كنت أعرف، فى هذا الصعود الذى لا أكسب فيه ولا أخسر أرضا ولازمناً، إن نسخة الأهرام الوحيدة سوف تصل إلى القرية بقطار بعد الظهر وسوف يأتى بها ساعى البريد الطواف على حماره الميرى الأبيض، وسوف أقرأ فى آخر هذا الصيف، ان تشيكوسلوفاكيا قد سقطت، وكنت أنا أيضاً، كأقربائى الفلاحين، أجد صعوبة فى نطق اسم هذه البلد الصغيرة البعيدة، وكنت أرى حروف المطبعة الكبيرة المسطحة في العناوين الممدودة بالاحمر على عرض الصفحة الأولى، ونص إعلان الحرب على المانيا، بتوقيع الملك جورج السادس.

أرى الحرس العسكرى يقف بإناقة وجمود، على باب مينا هاوس، وسيارات الجيب العسكرية وعليها المدافع الرشاشة مصوبة إلى الشارع. ولوريات الأمن المركزى فى الظلام مكتظة بالجنود، غامضة المعالم وثقيلة.

دخلت من الباب الزجاجى العريض المائى النسيج، الأنوار الملونة المعلقة فى السقف بحلقاتها الصفيح المخبوءة بمكر الصنعة تسقط على السجاد والبلاط الرخامى الفسيح. منصات الموجنى المصقولة، هرير التليفونات وأصواتها النسائية بالإنجليزية والعربية، المقاعد المنخفضة تغوص فيها أمريكيات سيقانهن عظمية مكشوفة، وعرب بالعقال السعودى والطاقية الكويتية المخرمة والجلاليب الحريرية التى تتخايل من ورائها أرجلهم الدقيقة فيما يشبه بذاءة لا تكاد تلحظ، عيونهم المسدودة تحت حواجب عميقة السواد تطل من وجوه فى لون الزيتون، والسفرجية بطرابيشهم وأحزمتهم الحمراء يتحركون حركات الدمى، البوتيكات وشركات الطيران خالية وأنوارها متقدة، كأنها منسية، من وراء الأبواب

الزجاجية المغلقة، وآلات التكرز من وراء الأبواب الشفافة تدق بخفقات معدنية موزونة الموسيقى وأرى مصابيحها الصغيرة مشتعلة بنار صفراء.

كنت أسير عبر الردهة الباذخة لا تحتجزنى ومضاتها كأننى أعرف طريقى.

كانت الصهاريج الألومنيوم الهائلة تطن، وتفح بخارا ساخنا فى سحابات بيضاء لها وشيش ممتلئ يخبو ليصعد من جديد، فى دقات منتظمة. وكانت المراجل المتينة القوام تغلى بنيران كهربية تصدمنى قوتها لا تنفرج، والأنابيب الضخمة تمتد فى خطوط مستقيمة الزوايا وترتفع حتى تخترق السقف الشاهق، ومنصات المطبخ الحديدية عليها خطوط بارزة تسيل بزيت شفاف. كنت أبحث عن شىء أعرف أننى لن أجده هنا أبدا مع ذلك، وأواصل البحث فى لهفة. ولم يكن من الممكن أن أسأل الطباخين بقاماتهم الطويلة وقبعاتهم القماشية البيضاء العالية وقد تهدلت قليلا من الحر والبخار، وهم يعكفون على طواجن نحاسية ضخمة كأنها أقواس دائرية

مُقتطعة من خزانات البترول التى نجدها بالقرب من محطات السكة الحديد، يقلبون ما فيها بمغارف خشبية طويلة، داكنة من البلل، ووجوههم لا تعبير عليها.

واندفعت، فى بحثى، بين الطباخين الذين لم يشعروا بى، كأننى أصلا لست هناك، إلى هذه المواعين اللامعة الجدران. وانحنيت عليها، كأنما أنتظر أن أجد فى داخلها ما أنشده.

الطيور الضخمة التى تعدّ للوجبات العامة، مسلوخة، منتوفة الريش، مشدودة الجلد. أعرف أنها حية، ماتزال، وتنبض. تغوص قليلا فى عجينة كالمايونيز طرية مصفرة، كثيفة، ولها رؤوس مقلوبة على وجوهها تتحرك حركة واهنة، عيونها مدفونة فى العجين المتخمر بفقاعات كبيرة تتضخم ثم تنفجر بصوت بذئ، ولها من الخلف انحناءات مألوفة، حليقة ومدورة، تنتهى إلى أعناق شبه بشرية، ظهورها نصف الغارقة تنتهى إلى سيقان مدكوكة العضل ملوية عند الركبة، لا يبدو غير نصفها العلوى. وكان انسحابها الأنثوى غضاً وله جاذبية تقبض الأحشاء، تحت

استدارة الأرداف المليئة نصفها فوق العجين ونصفها غارق فيه. الأفران الضخمة تئز تحتها، والعجينة تغلى وتفور، والأطراف شبه البشرية تبدو كأفخاد بدينة سخنة، يلتقطها الطباخون بمغارفهم فتنفصل بسهولة عن المفاصل، كأنها من غير عظام، ويقذفون بها إلى الصهاريج التى تنفث سحابات البخار، وعندما ترتفع فى الهواء كانت أقدامها تبدو ناعمة الجلد وأصابعها وادعة ومثيرة.

ورجعت، أجرى هادئ الأنفاس، لم أجد ما أبحث عنه.

وفى هذا العالم السفلى وصلت إلى المصعد الواسع الذى لا باب ولا سقف له، أرضه من أعواد الخشب المتجاورة على حديد مسطح، وبها لزوجة من أثر الشحم والدهن القديم. هبط المصعد بى فى بئره المعتمة العميقة القرار، حباله المعدنية المضفورة، أمام عينى، تهتز فى توتر مستمر النبض، حتى خبط بالقاع فجأة فى هديد مكتوم، وخرجت من كسر مفتوح فى جدار رقيق منفصل، مقام على طوبة واحدة.

مازلتُ أجرى فى حقل لا نهاية له من التراب الموحل. الانقاض حولى ترتفع وتنحدر فى أكوام هائلة متتابعة حتى مدى البصر. قضبان حديدية، كأنها شرائط ورق، تخترق هدد الأحجار المتساقطة بالتواءات مدببة وكأنها حية مازالت ترتعش، وتطعن السماء داكنة الحمرة. أطراف الأفق، عند النيل، تشتعل بدخان بنفسجى قاتم كثيف الاحتراق.

لم يكن لجسمى وزن وأنا أصعد وأهبط فوق الآكام وفى بطون الأرض. الأتوبيسات كأنها صغيرة نصفها مازال يبدو فى نور السماء أحمر اللون بقذارته المعتادة ومحركاته المكشوفة، وقد قذف بها فوق ركام الحجر والحديد مقلوبة ومنبعجة وظهورها قد خسفت ومقاعدها ناتئة تخترق زجاج النوافذ العريضة الذى لم ينكسر. أرضية كوبرى ٦ أكتوبر العلوى قد انقلبت وأصبحت فى امتدادها الرأسى النحيل حائطا عموديا يقف فى عرض النيل، سقطت كتل الأسمنت الضخمة مازالت متلاصقة ولكنها تنبسط جداراً رفيعاً يشق السماء، انزلقت عليها

السيارات وهى تنقلب، وغاصت فى النيل، لا يدل عليها إلا فقاعات من الهواء تنفجر بهدوء على المياه السوداء.

ويبدو كوبرى قصر النيل قريبا منى، مكسورا من منتصفه كأنه مقطوع بسكين حادة، مازال نصفه مستويا يهتز أقل اهتزاز، سياجه معلق، بأعمدته الرقيقة القصيرة، لا يحيط بشىء، فى الفراغ، فوق الأمواج قاتمة الخضرة وعليها حلقات متكاثفة الورق من نبات ورد النيل الغليظ. برج القاهرة يميل بارزا من بين النباتات، يمتد من الجسر إلى قلب النيل، يبدو مسدودا وتتموج حوله دوامات صغيرة، وبجانب طرفه الساقط على الأرض تتأرجح فى مياه الشط معدية سليمة الأخشاب وكاملة وفيها مجدافان، يرقد فيها المراكبى وزوجته وأولاده، هادئين، كأنهم نائمون، ومازال وابور الجاز مشتعلا يفح، وبجانبه طبخة سمك لن يأكلها الآن أحد.

ورأيت الكورنيش وميدان التحرير ومبنى الاتحاد الاشتراكى القديم والهيلتون الجديد ومبنى ماسبيرو العريض المستدير بأبراجه وأعمدته اللاسلكية كلها قد

تحـولت بضـربة دمـار كـاملة إلى هـدم وحطام. ربوات صامتة ومظلمة فى حقل موحل يهبط إلى وهدات غائرة. البيوت القديمة بمشربياتها المتهاوية مازالت قائمة، ومازال الغسيل منشورا عليها، فى وسط امـتداد الانقاض التى تنبسط فى تلال مضطربة بين الكبارى الساقطة، وعلامات النيون المقطوعة ماتزال تشتعل بالأخضر والأحمر من غير جـدوى، حـتى مـيدان رمـسـيس ومـحطة باب الحـديد. والتمثال العظيم منكفئ وجهه في التراب، تنبثق من فوقه اندفاعات المياه الرفيعة الخطوط من نافورة مازالت تعمل بانتظام وآلية، تحت احتراق السماء الكئيب.

ورأيت فى وسط بركة من الماء الأحـمـر السـاكن وجـه لنده، مـقطوعـا وهادئا ومـازالت على شـفـتيـهـا ابتسـامـة صـغيـرة كأنها تحلم أو تسـخـر، وشعرها الأسـود الناعم الطويل، من تحت المدورة البـيضـاء المغـضنة، يطفو فوق سطح الماء الضحل، تهتز خصلاته الرقيقة اهتزازاً صغير التموجات. وقلت لنفسى: أوفيليا الفلاحة التى لم أفهمها.

وكانت تتحرك فى الطين أفراس البحر، سوداء الجلد

غليظة القوام، أفواهها مفلطحة ولها خراطيم تتحرك كالشفاه وتتماس فى بحث بطئ عن لمسات كأنها قبلات، ولها أصوات كأنها لغة. وجاش قلبى بالبكاء، أخيرا، وانهار، عندما سمعت منها نبرات من الكلمات خيل إلى أننى أعرفها، كلمات من لغة قديمة عذبة نسيتها، ولكننى كنت أعرفها، وكأنها تبحث عن حنان، عن شوق، تدرك أنه مفقود، وتدرك أنه كان هناك، وأنه لا ينتزع ولا يموت حتى فى ظلمة الأحشاء المرضوضة.

وكنت أسمع انفجارات صغيرة متقطعة لها أصداء موحشة، طلقات بنادق ودمدمة مدافع رشاشة وقرقعة قنابل يدوية، متناثرة، تلوح كأنها لن تنقطع.

وكنت أعرف أنهم تحت، هناك. يتحركون وسط الأجهزة ويحركون الأشياء فى أنفاق محفورة على أعماق بعيدة فى الأرض، مصمتة ومعزولة تماما، منيرة بضوء معدنى باهر ثابت الدرجة لا ينطفئ ولا يصدر عن مصابيح بل تشع به الجدران المنسابة المصقولة، وتحميها مدكات هائلة الحجم من الأسمنت والحديد عليها أقواس

الرادار التي ما تفتأ تدور بلا توقف. وكأنهم هم أيضاً من معدن أسود. عيونهم مدورة، ثابتة، أجسامهم محسوبة وعقولهم تنبض بذبذبة منتظمة الإيقاع متصلة ولا تغفو. وكنت أعرف أنهم هناك، تحت، آلات فيها حياة، فى قلب هذه الآليات الضخمة التي فيها حياة، خططوها لأنفسهم وبأنفسهم تخطيطاً لا يناله أدنى خطأ فى التصميم، وهم مع ذلك خائفون.

وفى الليل، وتحت قرقعات تمزق لحم السماء الميت بطعنات لها ضوء عقيم، كانت أقدام الناس تدوس فوق الحطام، وكان هديرهم المدمدم فى الظلام يصل إلى قلبى فيملؤه، ويفيض، بالماء الداكن القديم. وعندما عدنا بالسيارة فى الفجر المظلل بغمام ساخن كان طوفان الناس يغرق شوارع المدينة المتهدمة بالجلاليب والقمصان والبنطلونات، والفلاحات بالملس الأسود، الرؤوس الحليقة الصلبة العظام التي سهرت طول الليل فى زحمة القطارات، تطفو متلاحقة بين واجهات البيوت الكالحة، ووراء أحجار السلالم المنهارة، وحول العمود الجرانيتى

المستقيم المستدير الذى يرتفع، لم ينله خدش وقمته مازالت خاوية. ورأيت بينهم من يحمل فأسه ومقطفه على كتفه، وهو يلبس جلابيته الوحيدة المتغضنة المغسولة. وكانت الكلمات المكتوبة بخط سريع وملهوج على لافتات القماش والخشب والورق المقوى، وصور الرجل التى لا عداد لها، مائلة ومنتصبة، تعوم فوق الطوفان، تبدو من كثرتها كأنها لا تقول شيئاً، وكانت الأتوبيسات الحمراء خفيفة الوزن الآن تفرغ حمولتها فى ميدان التحرير وتعود بسرعة من أى طريق إلى خطوط السكة الحديد فى ميدان المحطة الفسيح الخراب، وكأنها تسابق موعداً قد أزف، بل فات.

كنت أسمع هديد الأقدام تخوض فى المياه القليلة الغور وتستند إلى أنقاض الأحجار التى غاصت فى الطين.

وأعرف أنه لن يوقفهم شىء، وأنهم ينصبُّون فى أعداد لا تنتهى، وأنهم صامتون الآن.

الثعبان والنهد المجنون

كانت رائحة البحر والسمك النئ الطازج تتغلغل في الحوارى الموحلة قليلاً، مياه المطر من نوّة الأمس مازالت تترقرق تحت هبات الهواء الملح، وتنتهى إلى الأرصفة البازلت.

وكنت أمشى بسرعة بين البيوت المبتلة القليلة الارتفاع أحاذر أن أنظر، بشكل صريح، إلى المداخل المعتمة قليلاً المليئة بالنسوان، منهمكات فى الطبيخ أمام مواقد الجاز التى تفح وتنير العتمة بنور أصفر ثابت الاتقاد، أو متربعات أمام الطشوت المعدنية يغسلن ويدعكن هدوم الرجال والعيال، أو مُحنيات الرؤوس عاكفات على تنقية الرُزّ فى الصوانى النحاسية فى نور النهار على عتبات البيوت، وهن يرضعن أطفالهن تركن لهم أثداءهن بحركة نسيان لهم وللعالم كله، وكنت أحس عيونهن مفتوحة علىّ صاحية لى فى الوقت نفسه، متسائلة.

كنت ذاهباً إلى الرَّبْع القديم فى بحرى، وقد استأجر فيه قاسم اسحق شقة صغيرة، من غرفتين على السطح، ليهرب من مطاردة البوليس.

عندما عبرتُ الباب الضخم العتيق، عالياً جداً ورؤوس المسامير الغليظة مدقوقة فى خشبه السميك، إحدى ضلفتيه مغروزة فى تراب الحارة التاريخى والثانية مسنودة لا يمكن تحريكها على حجر الحائط العريق المُسْوَد، فجأتنى رائحة الرطوبة وبلل التراب فى الفَسَحة الواسعة العتمة. كان زجاج نافذة المنور العلوية، وأنا أرفع إليه بصرى، فيه أثارة باهتة من ألوانه القديمة الزاهية، وتراكمات التراب الذى تكثف وجَفَّ حول حفافى الزجاج وقد زحف وساح تحت مطر الأمس.

مررت بجانب العربة الكارو عالية العجلات ذراعاها الخشبيتان الطويلتان مسنودتان إلى حائط بير السلم، وصعدت السلم الخشبى الحلزونى العريض، درجاته تصئ تحت قدمىّ. خشبها قد اهترأ وانبرى تماماً وزال من المنتصف فى بعض الدرجات والدرابزين البلوط السميك

المدوّر نَعّـمـتــه سنوات من مَـسْح الأيدى ومـسـكهـا وتحسّسها يهتز ويميس كأنما يوشك على الانخلاع.

فـتح لي مناسم اسحق الباب بعد أن طرقـته كـالمتفق عليه، ثلاث طرقات متلاحقة ووقفة ثم طَرْقة واحدة وبعدها بقليل طرقة واحدة أخيرة.

قال بلهفته المعتادة وحيويته المستمرة: هيه، إيه الأخبار فيه حاجه؟

كـانت الجيـم عنده أسوانـيـة نوبـيـة مُعطشـة ومُشـبـعـة، وكان، حـتى فى لهـوجـة السـؤال والقلق، يبـتسم ابتسـامـة خفيفة كأنما على الرغم منه، ووجهه الأسمر الوسيم مدفوع به إلى الأمـام فى توجسـه وتطلعـه، وعلى صـدغـه الأيمن التشريطان القَبَليّان التقليديان، رأسييّن، بلونٍ أقل سمرة من جلد الوجه، وتفوح رائحة البريّانتين الكثيفة من شعره الخشن الصلب كأعواد حلفاء حوشـيـة. كنت أضـحك عليه وأغضب منه قليلاً، فى طهرانيتي الصبيانية، عندما أجده يقضـى ساعات، حرفياً، فى تنعيم هذه الحرشة من الشعر وتمسيدها بالبريّانتين ثم يربط عليها فوطة يتركها ملفوفة

على رأسه، نسوية الإيحاء قليلاً، طالما كان فى البيت.

ضم حواليه الجلابية النوبية البيضاء القصيرة فقد هب عليه الهواء البارد عندما دخلت.

– خير لغاية دلوقتى. النيابة طلعت أحمد النمس ويسرى حليم من غير كفالة. عبد القادر نصيبه أتجدد أربع تيام كمان بس المحامى بيقول ما فيش قضية خالص. إطّمن عبد القادر جدع. إسمك ماجاش خالص فى التحقيق.. بس يا عم...!

جلس على الكرسى الخيزران الوحيد فى الغرفة الواسعة الخاوية، الدافئة مع ذلك بشكل غير متوقع، خلف المكتب المهدّم المكوّمة عليه كتب القانون وكراريس المحاضرات ومسودة ترجمة «الأدب والثورة» التى كانت يحاولها منذ شهور ولا يريد أن أشاركه فيها.

كان ثورياً وصلباً حتى النهاية، وفي السجن بعد ذلك بسنين انضم إلى «حدتو» وقضى فترة الواحات كلها بشرف وخرج واشتغل محامياً فى أسوان ومات بسرطان فى المخ، ومازلت أعزه جداً ولا أتصور أنه مات. أفكر

أحياناً أننى سأراه عندما أذهب إلى أسوان.

كدت أتدحرج وأسقط على السلم إذ انزلقت قدمى على درجة ٍ ممسوحة بالية الخشب واهتز الدرابزين فى يدى بشدة وأنا أتشبث به وأتأرجح معه.

انفتحَ الباب فجأة بينما العالم يدور ويميد وينهار من حولى وكأنما تنفتح تحت قدمىّ هُوَّة فاغرة الأغوار مظلمة، وقبل أن أراها سمعت صوتها الخفيض المبطّن بشهوية ٍ خاصة.

– باسم الصليب وشارة الصليب، اسم الله عليك وعلى أختك، مش تحاسب يا خويا؟

كلمات أمى عندما كنت أقع على الأرض فى طفولتى، وأتساءل دون كلام: من أختى؟ وما شأنها هى إذا وقعت أنا؟

ولكن الصوت كان فيه مع ذلكِ من الحنو والخفوت الأنثوى ما افتقدتُه فيما أعرف من صوت أمى المشبع بسُلطة الأم وانفرادها بابنها، مع اللهفة المشتركة.

كان الوجه الغامق المسحوب الذقن الذى يطل علىَّ من

وراء الدرابزين وجهاً قبطياً مرفوعاً من تابوت فى الفيوم ولكنه حي ونضر وأملس الجلد كأنه ذهبى باهت ومصقولاً جداً والعينان الواسعتان الغويطتان يحيط بهما سواد الكحل البلدى.

– تعال تعال يا خويا، يا ضنايا دانتَ وشّك مخطوف، عاديك ولا الليمونة، تعال اشرب لك بُق مَيَّه ولا حاجة. إدخُل أعمل لك شاى..

عندئذ فقط رأيت أنها تحمل طفلاً صغيراً جداً تضمّه بذراع واحدة إلى حضنها، وفى العتمة الخفيفة رأيت أن صدر الجلابية الكستور المفتوح مبتل وأدكن قليلاً مما حواليه، وشممت رائحة لبن الأم لا يخطئه الحس خصيباً ونفاذاً وفيه أثارة من حلاوة.

كانت ملامح الولد دقيقة جداً ومنطمسة في صدرها ومجعَّدة قليلاً، عيناه مغمضتان وجفناه منتفخان كأنه عجوز ويده الصغيرة الواضحة الأصابع مبسوطة على تدويرة صدرها بطمأنينة الوداعة التامة، أما جسمه فملْتوٍ على بعضه بعضاً فى حضنها يلوح لزج الجلد بارده.

ولمعت فجأة على تقويرة جلابيته البيضاء زرقة الخمسة وخِميسة بخرزها الصغير وأصابعها المفتوحة على آخرها، والصليب البنى المصقول الخشب.

هل قلت شيئاً؟

لا أذكر.

كنت جالساً على الكنبة الأسطمبولى المعتادة فى غرفة فسيحة ودفيئة وآمنة، وكان المطر يدق بانتظام ويتقطر خيوطاً سائلة نازلة على زجاج النافذة العريضة المحكم الإغلاق، وكان فى يدى كوب شاى زجاجه ساخن ويصعد منه بخار خفيف ولكنه لم يكن محرق الطعم بل مقبولاً على اللسان ومنعشاً لأحشائى الجافة.

وكانت تجلس، أمامى، على شلّتة مرمية على الكليم الأسيوطى، وفى حضنها الطفل.

حدستُ تحت الجلابية الكستور المفتوحة الصدر متانة الجسم القبطى ولدونته وانسيابه راضياً شبعان ومرتاحاً، كأنه من حجر الديوريت العريق الحار داكن الخضرة.

لابد أنني قلت لها – هل قلت لها؟ – اسمى، اسمى الحقيقى.

وهل لى اسم حقيقى؟ بل هل لى من اسم أصلاً؟.

وهل نسيت «قواعد الأمان» والحيطة من الانكشاف؟

لأنها كانت تحكى لى باطمئنان وثقة. بأخوة؟ بزمالة خاصة؟ بانتماء مشترك مفترض يأتى فطرياً تقريباً عندما نتعرف على الأسماء المشتركة؟ أم بذلك النوع من التفاهم الجَسَدانى الفورى، ذلك التجاذب الأولى التلقائى بين امرأةٍ ورجل مهما اختلفت المشارب والمنازع أو تنافرت المصادر الطبقية أو المراجع الثقافية. كأننا - فى لحظة - كنا قد عرفنا أحدنا الآخر من أزمانٍ تندّ عن القياس والتاريخ. كنت معها أعرف ذلك الأُنس الجسمانى الدفئ المسلم به دون سؤال ودون بحث، تلك الاستثارة الحميمة التى ليس فيها أدنى توتر ولا أهون طلب، ذلك الحس الذى لم أعرفه بعد ذلك إلا هِينات لا زمن فيها فى بيت الشعرى اليمانية القادم فى الزمان.

كان الولد يرضع من صدرها الصغير الذى يبدو عذرياً، ببراءة كاملة.

قالت لى إنه بعد الغارة الأخيرة على البِيَاصة

والطوربيد الذى نزل فى كوم بكير وترك حفرة دائرية
عريضة امتلأت بالماء الراكد الثقيل فيه لون الدم الباهت
القليل، سافرت أو هاجرت عند أقارب زوجها فى دمنهور،
قالت لى إنه نجار على رصيف الفحم فى الميناء، وقالت إن
ميخائيل وأشارت إليه بحنو خفى ولا مبالاة - أو ربما ما
يبدو أنه ضجَر قليل - وهو يرضع، كان بعافية، جداً.
ولكن إدلّعَدِى سى شنودة أصر على أن تسافر به بعيداً
عن الخطر. وقالت إن الولد، قبل أبو حمص بشوية، بدأ
يشهق وكان تنفسه ثقيلاً حتى أنه يا قلب أمه ازرقت
شفتاه، وقالت إنها أيقنت أنه سيروح منها، فى الطريق،
قبل أن يصلوا إلى دمنهور، وإن القطار المزدحم المختنق
بالناس كان يمضى فى سكته دون أن تعرف هى ماذا
تفعل بابنها الذى يموت وقلبها الذى يتدهور ويغور وكان
جيرانها فى القطار يتصعّبون ويقولون لها أن تبلل شفتيه
بقليل من الماء وسمعتهم يهمسون أن سقاية الميّتين ثواب
وله أجر عظيم.

قالت إن الولد لم يكن قد تَنَصَّر بعد وإنها قالت

لنفسـها سيموت دون تعميد، ضناى لن يذهب أبداً إلى الملكوت ولن يرى وجـه المسـيح وسـيبقى فى الظل المعتم على الأبواب بين الجنة والنـار إلى أبد الآبدين وإن أبانا فيليبوس من الكنيسـة المرقسية كان قد حكى لها الحكاية.

قـالت إن يسوع نوَّر لها قلبها مرة واحدة ولم يكن ما عقدت عليه عزمها منها هى هى، بل من المسيح.

وقـالت إنه لم يكن فى القطار طبعاً، ماء مُصلى عليه. وليس هناك شىء طاهر إلا، ربما، شىء واحد.

استنجدت بالناس حولها تطلب أى شىء حاد وقاطع، مطواة، موسى، سكيناً، شفرة، أى شىء، فاقترب منها شيخ يعتمر عمامة صغيرة بيضاء كالفل على اللبدة الطرية، قالت لى إنه كان طول الوقت يقرأ القرآن بصوت خفيض كأنه يدعو الله أن يُنجى الطفل الرضيع، وأخرج من جيب جلبابه الطويل جراباً فيه موسى حادة وقال لها خذى يا بنتى باسم الله، على خِيَرة الله، قالت إنها خلعت عنه الجلابية والفانلة واللباس والشراب جميعاً فى وسط زحمة الناس فى القطار واحتضنته عارياً تماماً. ودون

تردد لحظة واحدة جرحت ثديها وعندما تقطر الدم رشت على وجه ميخائيل قطرات منه وهى ترسم عليه الصليب وتهمس له: عمّدتك باسم الأب والابن والروح. عمّدتك باسم المسيح معموديّة كاملة يا ميخائيل يابن بطنى يا بن شنودة النجار. يارب خلّه مستحق النعمة واجحد عنه الشيطان وطهِّر روحه وجسمه من كل شر وكل خطيّة. مولود من جديد يا ميخائيل يابن نجيّة يا بن شنودة يا بن المسيح له المجد والقوة والملكوت أبد الآبدين. ومسحت رأسه بنقطة دم ونقطة لبن.

قالت إن الولد قد هدأ واستراح بعد أن ألبسته وأخذته مرة أخرى إلى حضنها وإن الجرح على ثديها قد برئ بمجرَّد أن غطته عن أعين الناظرين، وإن الولد قد برئ بمجرد أن راح فى نوم عميق.

ثم قالت إن الحكاية كلها قد مضت وانقضت وإن زحمة الهجْرة والبعد عن البيت والعودة بعد شهور للإسكندرية شغلت بالها وإن فرحتها بشفاء الولد أنستها تماماً كل ما حدث فى القطار، هكذا، حكمة ربنا، ولكى

يظهر لنا مجده.

قالت إنه فى أحد التَّنَاصير ذهبت به ومعها أبوه وأقرباؤهم إلى الكنيسة المرقسية الكبرى لتعميد ميخائيل تعميداً صحيحاً. وفى وسط صريخ الأطفال وترانيم الشمامسة وموسيقى الصنوج وضرب النواقيس والتراتيل القبطية والعربية وتهليل الشعب وتبريك القسيس وهو يُغَطِّس المُعمدين فى الماء المقدس واحداً بعد واحد بالترتيب، جاء دورها وتقدمت بالولد إلى أبونا وهو يهم بأن يُغطسه في الجُرن الرخامى الكبير. توقف أبونا فيليبوس وشُلَّت يداه فجأة وهتف: يا يسوع. لك المجد والقوة والملكوت إلى أبد الآبدين.

لم يكن فى المعمودية قطرة مَاء.

الجرن العميق الذى كان مترقرقاً بالماء المقدس منذ لحظة والذى تعمد فيه، فى التو والحال، أكثر من عشرين طفلاً، كان خالياً لامعاً تام الجفاف.

نظر أبونا فيليبوس إليها وإلى الولد، بصرامة أبوية، برحمةٍ قاسية وقال:

- إيه الحكاية يابتي؟ الولد متلبِّس بالشيطان. طب هو بريء بلا خطيّة. ما تكونيش أنت خاطية يابنتي؟ ربنا كبير ومحبة المسيح من غير حدود.

عندئذ فقط، قالت لي، أدركت ما حدث. وقالت للقسيس عن الحكاية كلها.

كان الولد قد تعمد بالفعل، وأصبح مؤهلا للملكوت، بدم ثديها ولبنه.

مسح أبونا فيليبوس على رأس الولد بمسحة زيت الميرون وقال:

- مبارك باسم الرب. روحي يا بنتي صلّي. معجزات يسوع من غير نهاية. روحي يا بنتي صلّي. معاكو بركة المسيح. الولد جاحِد الشيطان ومعاه قوة يسوع.

كنت أرى ضوء الشموع يهتز حول جرن المعمودية الرخامي وأسمع التسابيح الهللويا والهُوسّانا في فرح الإيمان وبهجة المعجزة وقد عاد الماء المبارك ببطء، وحده، من غير أن يصبه أحد، من غير أن يأتي من أي مصدر منظور، يصعد في الجرن المصمت الرخام.

وكـأنما قلت لنفـسى إننى كنت أنا أيضـاً أومن، ولا أصدِّق.

عندئذ فقط رأيت أن ثديها الأسمر الغض كان فى فم ابنها طول الوقت يمصه بصوت مسموع ونهم راض مستريح، وهى تسنده إلى حضنها وترضعه بحركة فطرية ليس فيها أدنى شبقية، وكلها شهوية مع ذلك، ورأيت ثم ندبة طولية رقيقة على استدارة النهد الطرية، أكثر بياضاً، قليلاً، من لون الجلد الخمرى الناعم المشدود. وأثارنى الصليب الذهبى الدقيق النائم على الوهدة الخفية من منبت النهدين.

كان النداء يأتينى من الخارج: «نواعم يا غُرَيِّبة» وكانت الغرفة دفيئة وخمة نصف معتمة نصف منيرة تهتز الظلال فيها فى أول الصبح الباكر الغابر الحاضر والمطر يتقطر على خشب الضلف الموارية بصوت رتيب واضح البلل، وكانت أمى نائمة مازالت، ولم يكن أبى هناك، فأين كان؟ هل كان محبوساً فى تلك القضية التى لم أعرف عنها إلا بعد موته؟ وهل كانت أختى عايدة هى التى تضمها أمى

إلى صدرها، رضيعاً مازالت، دقيقة الجسم وسمراء مغضنة الوجه وأحبها منذ شهورها الأولى؟ هل كنت صغيراً إلى ذلك الحد؟ كم؟ ثلاث سنين؟ أممكن؟ أم أن تخاييل الذاكرة الطفلية تلعب بي؟ طعم «الغُريبة» الحلو الدسم وهي تذوب في فمي وتملؤه بلدونة لبنية وعجينة متماسكة وفيها ذرات محسوسة من الدقيق المسكَّر المحمَّص المخبوز المعطر بماء الورد.

كنت أضع الكرسيَ وأشبّ فوقه لكي تطول أصابعي صفيحة التوفي وكراملة نادلر التي خبأتها أمي فوق سطح الدولاب العالي بجانب اللحاف والمخدات المخصصة لضيوفنا الذين يأتون من الصعيد، وكان ورقها الأزرق ملتصقاً بدوران صفيحها، ملوناً، وعليه صورة كومةٍ منهارة متراكمة من الحلوي الكروية والمستطيلة والمضلعة الجوانب حمراء وصفراء وصهباء ونصف شفافة مشبعة بالبياض فإذا نالتها أصابعي جذبتها بحرص وفتحت الغطاء، وأنا مازلت على الكرسي، واستَرَقت قطعتين وقاومت الثالثة حتى لا تنكشف الجريمة التي كنت – على

طهرانيتى ومسيحيتى - أنسى أنها جريمة أصلاً، تأرجح الكرسى تحتى واهتز وأحسست الأرض ترتفع إلىّ فجأة بسرعة خارقة تصطدم برأسى وكان لصوت الصدمة هديد كأن العالم ينقضّ. ولكني على الفور نهضت دون أن أعبأ بالدوار ولا الألم، وأعدت الأمور إلى نصابها، ولم أنسَ غنيمتى من الحلاوة، فهل كان الحلاوة دائما غالية الثمن، وعذوبتها لا تتأتى إلا من امتناعها ومنعتها؟

- أنا محمد محمود ياكَبّ؟ إنت محمد محمود يا كَبّ.

ومع الضحك والتهليل الذى كان الولد يتطلبه أيضاً، فقد كانت نسبته إلى صاحب اليد الحديدية إهانة لا يقبلها إذ يشبَ فى بيت يتقاسمه الولاء لمصطفى النحاس من ناحية، ومصر الفتاة أو البرنس عباس حليم من ناحية أخرى.

كان أبى هو الوفدى العريق أما أخوالى يونان وناثان وسوريال فهم المحدَثون المتشيعون للجديد.

أما الولد فيرفض بكل جد ودون أدنى تنازل أن يُشبه بالديكتاتور.

كان الثعبان الشيخ – شيخ الثعابين – ينزلق ببطء على أرض الفَسحة الترابية الواسعة التى يدور فى قلبها السلّم الخشبى العريض القديم.

وكان ينظر إلىّ بثقةٍ واطمئنان ودون لهفة، عيناه لا تطرفان وهو يتلوى على الأرض التى جفّت الآن وتشقّقت، هادئاً ينسال بجسمه المدوّر السميك الملفوف، لا ينتهى انسيابه على الأرض، متجهاً دون عجلة إلى جُحره الواضح المعمور تحت الحائط الحجرى العتيق.

احتميت بجسم العربة الكارو العالية ذات البطن المكور العميق معلقاً بين عجلتين هائلتين ترتفعان شاهقتين وضخمتين جداً، وكان الحصان الذى دفن خطمه الطويل الجسيم فى مخلاة العلف يحمحم بشدة ويزفر بغضب.

كان الثعبان قد انزلق بهدوء وسلام، اختار مساره على التراب بتؤدة، صاحب البيت ونحن جميعاً غرباء، يحتملنا ويقبل حضورنا الذى يعرف أنه حضور عرضى وعابر إلى زوال.

وكان الفم الذى يرضع لبن الحزن والغضب من النهد

الخَئُون، ظامئاً – ومازال – إلي اللبن والخمر والدم النقى الطَهور.

الكوْبرا المِلكة الناشرة جناحيها فى حنان. عصيرُ النهدين سُلافةٌ قاتلة هى ثمن الألوهية وسمّ الخلود.

فى عينيها نظرة زجاجية مكحولة إلى الأبد وثابتة محفورة على الحدقتين.

كنا نذهب ليلة العيد أنا وأختى عايدة إلى الفرن فى شارع ١٢ نستعجل صوانى الكحك والبسكوت والغُريبة، ونقول للفران إن أمى تسلم عليك وتقول لك إننا لن نرجع إلا ومعنا صبى الفرن وعلى رأسه الصوانى الممتلئة الفوَّاحة بعطر الطِيب السخن الطالع من النار. ويشخط فينا الفران نصف جاد نصف عارف أننا لن نمشى إلا ومعنا غنيمة العيد ووعده، سعيدا هو أيضاً بعيدنا نصف فرِح لفرحنا ونصف راضٍ بما يشخلل فى جيبه من فضة العِيد.

نلعب قليلاً، إلى أن تنضج صوانينا، فى الفرن الفسيح الدافئ الممتلئ بشوالات الدقيق المرصوصة فى الظلمة

الداخلية للفرن بعيدا عن الفوهة المشتعلة التى تئز فيها النار أزيزاً متراوح النغمة لا يخيف وإن كان يهز القلب، أكوام الشوالات طرية تضغط على بعضها بعضاً فتنبعج حناياها قليلاً بنعومة. والترام فى الشارع يصلصل بهيجاً ومنيراً وخاليا تقريباً، وكنا نتكلم كالكبار ونحكى الكثير.

ماذا كنا نقول؟ أية حكايات تلك التى كانت تشغلنا وتهمنا وتثير روحنا؟

أى صفاءٍ للروح الصغيرة التى مازالت تغمرنى وتحفزنى بالأشواق. الصفاء الذى أبحث عنه طول العمر أجده ويفلت منى باستمرار.

كانت نظرتها طويلة متأملة. ماذا كنت أقول؟ تلك النظرة النسائية الخاصة التي لا يعرف مغزاها إلا الرجال. قالت:

– إطَّمن يا خويا. إنت وصاحبك فى نِنٍّ عينىَّ الاتنين من جُوَّه. بَسْ خَلّوا بالكم برضو. وربنا معاكم. ربنا يباركُكم. مانا وشنودة والحتة كلها عارفة. ولا فيه حَدْ حيقدر يِهوِّب ناحيتكم ياخويا. ربنا ينولّكم مقاصدكم

ويُنصر بلدنا على من يعاديه.

ماذا كانت تريد أن تقول؟ هل كانوا كلهم يعرفون؟ وكانوا، كلهم، إلى هذا الحد حريصين علينا، وهم حقاً لنا الحماية والأمن المكين؟

لم أقل شيئاً. فهل كان صمتي، وحده، خيانة، واعترافاً؟

كان صوت الشيخ رفعت فى رمضان طفولتى يترقرق من صناديق الراديو الكبيرة ذات العين الواسعة المنيرة، فى الدكاكين والقهاوى والبيوت المفتوحة الشبابيك قبل مدفع الإفطار، صوتاً سلسلاً وجميلاً ومُنذرا، بحزن، من عذابات الخيانات والكفران بالنعيم، بطريرك آخر وهو، هو نفسه، صوته أبويّ وعجوز وحنون ومتعب من عبء الرحمة للخاطئين، ومع وجع الإيمان يقبل صرامة العذاب الحق المُحيق. هذا العطف والحزن الربّانى الشفيق الذى يملأ علىّ شوارع طفولتى وهواجسها وآمالها فى غيط العنب، أين هى الآن منى؟ وهل أستطيع أبداً أن أبتعث من جديد هذه الجَنَّات الواعدة البعيدة مفتوحة الأبواب عن كَرْمتها

وموصدة فى وجهى إلى أبد الآبدين؟ وهذه الأشجار المثقلة برمان اللبن والعسل والمرّ، والخمر الصهباء التي يشعشعها لى أبى بماء حُنوه ومحبته ويسقينى، وأنا طفل غرير، فوانيس الغاز مضلّعة الزجاج متقدة أشعلها لنا عفريت الليل بعصاه الطويلة التى يطقطق شَرَرُها، ثم مضى فى مملكة ليله التي لا نعرف لها حدوداً. من أين جاء؟ وإلى أين يمضى ويترك لنا حبّات النور، فاكهته المهتزة الغضة على شوارعنا الناعمة الغامضة التراب، أين هى؟ والبيت الخفيض جنب بيتنا، من دورين فقط، مقفل دائما وغريب ولكننا نعرف أنه معمور. نحس الحركة الحيّة فيه ولا نرى سكانه أبداً، نوافذه لا تنفتح لا يبوح بأسراره قط. دائماً مكنون على بحيراته الشاسعة الخفية الساكنة الماء وعلى أهل مملكته البنات الطيور اللاتى يأتين مرة واحدة كل عام ويخلعن ريشهن فإذا هن الحور الخُود لا مثيل لجمالهن فى الأرضين. أين ذهبت البنات؟

قوة حضور الذِكر تنقض القلب.

كل الآفاق التي طاف بها الحلم ولم تكن قط مواقع

للأقدام. الشطوط فسيحة الرمال على مياهٍ ساجية عذبة لا نهلت منها ولا رددت نفسى عنها، والبحار التى لم تَطفُ عليها أشرعتى حتى لو هبت بها رياح أشواقى، والشوارع المبلّطة بالحصى المدوَّر في القرى السحرية المستكنة بين المروج الخضر تحت شعاب الجبال وعلى سفوح المراعى تجرى فيها قنوات وجداول شفافة ثلجية الماء والأعمدة الضخام مكسورة الأضلاع أحجارها الهائلة يترعرع على خشونتها عشب الربيع النضير لا يعيش إلا قلائل الأيام، أنقاض لا تندثر وقوة الزمن لا تكسرها. فاضت نفسى، ولم تُشفَ، بحبٍ لا أدرى ماذا أفعل به، ولا ماذا تفعلين.

كان المطر يسقط بلا انقطاع على خشب الشباك الذى يشبه المشربيات، له وقع متصل رتيب، طوال الأيام الستة الماضية.

أما الشوارع الراقية فى الرمل وحول ملعب الملك وفي الحى اليونانى فقد كانت نظيفة تلمع ولخرير الماء المتدفق صوت بهيج، أما الحوارى التى أخوض فيها إلى الربع

القديم فى بحرى ثم إلى بيتنا فى راغب باشا فقد كانت بركاً موحلة ومازال الطين فيها ملبَّداً وشكله شرير.

رخام متسايل يبض بعربدة اللحم الشبّقى أعمدة تميد بها الصخور ويسندها ظلام القلب العنيد كثافة العصائر الجسدانية تنزّ من شرخ الحب العريق ومازالت التيجان المرمرية المكللة بأغصان العنب الحجرى تسقيها خمرُ الكروم المكنوزة أبداً لا تسيل تواجه الأفق بصمت وتُسائله بصمت صروحاً تتحدى السنوات والحِقب والدهور ولا يعنو بها زلزال الإنكار تكسرت نفسى معكِ على سلّم الرخام الأسود المستدير وأنت تتعثرين فى شِباك الرفض قوية الخيوط غير مرئية ذراعك فى يدي نحيلة غصنا مورقاً رقيق العظام كما هى دائماً فى حلمي لم أكن قد قبضت عليها قط وعلى طول العمر جرأة التقارب بينهما ليست غير مألوفة الحلم هو الحقيقة الوحيدة في عرفاني والحلم لم يحدث قط قلتِ دعني دعني الآن وجهك فاكهة مضرجة بدم الشجاعة هل كان أيضاً دم الحلم الذي لم يُسفك قط بسوائلُ الغضب المحسوبة الانسكاب تطيح

بالحبوس مرارتها لا تطاق أصابعي وحدها من غير إرادتي تزيح خصلة من الشعر عن تاج الجبهة الناصعة مسّ الشعر الخصيب واندفاق الدم في شرايين الشوق المفتوحة حتى الآن يدي ورقة شجر خفيف النسيج أسقطتها أصباح الشتاء متقبضة الأصابع على سماء مستغلقة أدحضها ولا تموت فى العتمة المحيقة ليس إلا نورٌ يحيط برخام وجهك المكسور وجسدك القائم شامخاً ومليئاً رغم الاندحار طقوس النكث وإقرار الإيمان مرة بعد مرة بلا انتهاء كل صبح وكل مساء وصوتك منحة وذبيحة.

من ثلاث سنين لم أكن قد عرفت بعد أن أبي قد مات فجأة في ليلة ديسمبر قارصة البرد ولا أن كل مورد للرزق قد انقطع فجأة ولا أن الجوع حرفياً كان مهدداً وماثلاً ولم أكن قد عرفت بعد كيف تلطمت فى تعليم الأولاد الصغار فى بيوتهم ألف باء الإنجليزية ومبادىء الحساب ولا كيف طرقت الأبواب وكتبت الطلبات بحثاً عن لقمة العيش لى وأمى وأخواتى الأربع ولا كيف اشتغلت

بعد ذلك وفى الحلق غصة لا تزول مع الإنجليز الذين كنت أمقت عساكرهم وفحشهم فى البلد فى ١٩٤٢ كنت ما زلت فى أولى سنوات الجامعة وأظن نفسى شاعراً وعاشقاً وأُحب نوريس فخري الفخور شامخة الصدر وأموت من المرارة والوجد في ظلام الوحدة وراحتها السرية دون أن أقول لها أو لأحد كلمة واحدة. كنت رومانسياً أعرف شيلى وكيتس وناجى وابن زيدون ولا أعرف من التنين إلا ذهبه الأصفر الساطع فى القلب مُخايلاً المستقبل المندثر البعيد. وبالمناسبة اشترى لى أبي بدلة «شارك سكين» بيضاء تتموج نصاعتها الحريرية المنسدلة بانسجام وكرافته حمراء منقطة بالأبيض وجزمة بيضاء على بُني ذات نعل كريب عال ومريح وطري ينزل بي قليلاً عندما أخطو على الأرض كأنها خف جمل ولم أكن قد عرفت بعد أنه قد مات فى آخر هذه السنة .

كان روميل قد توقف فى العلمين ولكننا كنا قد مللنا الهجرة إلى أخميم ودمنهور والطرانة، وقلنا سنبقى فى الإسكندرية، خلاص، مهما كان الخطر، ربنا كبير، وكنت

أمقت الألمان كما أمقت الإنجليز سواء، وقلت هم فى البلا-
سواء. فى السادسة عشرة كنت صاحياً وليبرالياً ونباتياً
ومن عشاق روسو وقُصيرى والسيرياليين ولم أكن كبير
الاهتمام بأخطر الأحداث في آخر هذا النصف الأول من
القرن العشرين، كنت فقط قد حزنت جداً لسقوط باريس
التي أحببتها من كتب أناتول فرانس وزكى مبارك ومحمد
الصاوى محمد وموباسان وكنت أحلم أن أعيش فيها
معنى المعرفة والحرية ولم أعرفها قط إلا بعد اكتمال العمر
زائراً مشغوفاً يرثى أحلام صباه.

كان الإنجليز قد انسحبوا من ثكنات مصطفى باشا.
تركوا فيها قوةً رمزية وكانت أعمدة الدخان قد توقفت عن
الصعود من القنصلية البريطانية المبنية كالقلعة على ربوة
عالية بإزاء محطة الرمل قبل المستشفى الأميرى.

ومع ذلك فقد كانت بنات الـA.T.S. يتخطّرن على
الكورنيش الخالى فى قمصانهن البيضاء الناصعة
الصغيرة الأنيقة والجيبات الكحلى المحبوكة على الأرداف
الرشيقة، ينزلن الدرجات القلائل إلى الشط الرملىّ

النظيف الخاوى وإلى الكبابين المخصصة لهن فقط فى شاطئ مصطفى باشا يحرسها البكيت المسلح يمنعون حتى اقترابنا من السور الحديدى الذى نصبت عليه أسلاك شائكة متقاطعة. البكيت بالبريه الأحمر وعلى ذراعه الشريط الأحمر المكتوب عليه بالأبيض M.P. يلوّح لنا بمدفعه الصغير، بصفاقة وبرود، دون أن يقول شيئاً ونحن نلمح الأجسام البيضاء المشوقة شاهقة البنيان والمايوهات الداكنة المصروفة - تعيين - من مخازن الجيش أو البحرية أو الطيران، تلمع فى شمس ظهر الإسكندرية الشتوى وهن يغبن فى البحر المضطرب دائما بالزَّبَد والموج المتقلب فى هذه البقعة بالذات.

دعانى صديقى أحمد صبرى الرسام لقضاء العصرية فى بيتهم الصيفى - قصرهم فى الحقيقة - فى العامرية. كانوا من أصل تركى أو شركسى وأغنياء جدا أصحاب أراض واسعة فى البحيرة والصعيد. ونزلت من قطار خط العامرية الممتلئ بالعساكر الذاهبين إلى الجبهة، يجر عربات البضاعة المكشوفة وعليها الدبابات الصغيرة

الحجم والمصفحات ذات المدافع الرفيعة الفوهات واللوريات العسكرية المرتفعة الجوانب المغطاة بالمشمع الأسود.

كان الإنجليز قد أقاموا معسكراً لهم فى العامرية والملاحة تترقرق بموج رصاصى محْمَرّ فى العصر وقصور السراب عند الأفق تتخايل كأنها قائمة فى السحاب والشمس وراءه تصب عليها ذهبها الباهت القديم. الخيام البيضاء الصغيرة صفوفاً وراء صفوف منتظمة ذاهبة إلى مسافة بعيدة فى الصحراء، أقيمت على الأرض العالية الرملية من وراء قضبان السكة الحديد ومن غير سور يحيطها ولا حرس ولا شىء، والعساكر على السرر النقّالة خارج الخيام يقرأون كتبهم ومجلاتهم بهدوء في نور النهار أو أنصاف عرايا يحلقون ذقونهم – ربما لتزجية الوقت فقط – على مرايا يدوية، أو متمددين فقط لا يفعلون شيئاً وينظرون إلى السماء. التفت إلىّ ولد منهم لا يزيد عنى فى العمر إلا قليلا ونظر إلى البدلة الشاركسين اللامعة البيضاء والجزمة الكريب

المُبيضة بعناية، بما يخيل إليّ أنه قليل من السخرية والاستهانة والحسد، ربما، نظرة المسافر بعيداً من غير رجعة، ربما، إلى المُقيم الكسول، وفى الدنيا كلها فجأة بعد رحيل القطار البطئ هدوء العصر الشامل والصمت الذى تؤكده أصوات المعسكر القليلة الخافتة فى الخلاء، والريح الملحية تهب ويتموج لها سطح الملاّحة الشاسعة بمويجات صغيرة ومع حسىّ بأن معظم هؤلاء الصبيان سوف يذهبون لمقابلة الموت الوشيك وأنهم كانوا يعرفون أنهم أولاد الموت فلم أستطع أن أرفع يداً التحية الصامتة التي تصورت أنها رغم كل شيء من حقهم. ألم أقل إننى كنت رومانسياً وصبيانى القلب؟

وعلى الجانب الآخر من السكة الحديد كانت خيام البدو غير بعيدة، منخفضة الفتحات وسوداء معمولة من جلود المعيز الداكنة شعرها أشعث ملبّد وناصل عند الأركان، وعند معاقد الأوتاد الصغيرة المشدودة بحبال رفيعة بين الأرض والخيام، وقد وقفت بضع جمال واطئة ولكنها كبيرة السنم تجتر عند بقايا الكوانين التى مازال

جمرها محمراً يتصاعد البخار من قدور سوداء منتفخة البطن منصوبة عليها، والمعيز تتجول ببطء تقضم حرشات النباتات الشوكية الجافة. ولم يكن هناك أحد.

بتّ ليلتها فى سراى صديقى أحمد صبرى ورجعنا فى اليوم التالى بسيارتهم الباكار يقودها السائق بالكاب والزى الرسمى، وعندما درنا حول جانب المعسكر رأيت صفوفاً من اللوريات الضخمة المهملة مغطاة بتراب الصحراء فوانيسها مكسورة ونوافذها مسدودة بالكرتون وأرقام لوحاتها المعدنية ممسوحة، وبجانبها مصفحات صغيرة صفراء مائلة على جنوبها، فتحاتها الأمامية أفقية ضيقة، يبدو زجاجها أسود اللون تومض عليه انعكاسات أشعة الشمس بدداً، وسلاسل عجلاتها الحديدية مفكوكة مرخية على الرمل وبعضها عليه شباك التمويه الخضراء المقطّعة الخيوط. وانتبهت لأول مرة إلى المدافع المنصوبة على قواعد خرسانية مربعة وأفواهها مسدودة بما يشبه الأكمام اللاصقة أو الطواقى المحبوكة الاستدارة بالمطاط والمعمولة من المشمع الأسود اللامع بزيت التشحيم، وبجانبها صناديق خشبية مرصوصة بنظام دقيق وعليها

حروف وأرقام كبيرة بالأسود على لحم الخشب العارى.

وعدنا - كما لا أنى أعود - إلى الإسكندرية

شطّ اسكندرية يا شطّ الهوى.

أهل اسكندرية رمانا الهوي.

شطّ اسكندرية..

يتعامل الواحد مع التخاييل التي تغتصب لنفسها وجه الذكريات ويزورّ عن الواقع فكأنه يعانى الواقع ولكن لا يتناول إلا جسد الحلم لُقى الحلم غير معدودة وتفلت كلها من بين الأصابع المشعوفة فما قيمة الدموع المذروفة لكل الحزانى والمقهورين الأحياء منهم والأموات بلا تبرير وثم توق رومانسى معكوس إلى الموت وإيمان به مع الترحيب والانتظار بل دعوة ونداء بأن يجيء قريباً جداً عند المنعطف التالى نوازع الخلود سنان حادة تنخس الفلذة النابضة ولا همود هناك وعقود اليشبَ والعقيق والمرجان تلتف بالأفخاذ والسيقان أفعوانات بازيليقية وأسماك الأنقليس ورَقط الوشق على شاشات الحواسيب المكهربة بخطف الأرقام بالملايين والحروف التي لا يقرأها أحد ما جدوى الرحمة والحب فى الخضم الذى يطفو عليه كوكب

الأرض مـيـاه التـدفق التي تجـرف فـى سكتـهـا العـيـون
والذكور والأرحـام المبقورة والمجبوبة والمبتورة الأوصـال
ينعق الوقواق على ربوات الردفين المكشـوفـة التي تسـوخ
بين عـواسج العليق العـزف على فـيولينة الجسـد أشـرطة
نباتات ملتوية وأرجل عنكبوت جريرية ملتفة تنهل من اللبن
الأسود الغنى الطعم تئز به محـركات اللوريات الهائلة فى
هذا اليمّ الذى آنا فآنا يضـربه المحـاق والجفـاف ثم يمور
بالطوفـان إذ ينطلق إلى الداخل فى عـالم الجـسم الممـزق
المطعون وسمـادير سَوْسَن المستنقعات نفّاذ العطر تفغم
أفواه السعـادين الظمـأى التشوهاتُ المحكومة والتقلصات
المنتشيـة وأمـجـاد الهوسّـانا وتسـابيح اللحم النازع نـحـو
الملكوت النهـود المضـمـومـة تبضّ من تخـريمات الدانـتيـلا
وشـبـابيك المشـربيّـات وتقضـمـهـا أنيـاب الوَزَغَـات والعِرس
المنسلة بين غـــيطان القطن والذرة وعلى تـراب السكك
الناعم تغوص فيه الأقدام الحافية الغزال المضـروب الدمية
الأبدية مفتوحة العينين لا تطرفان مصبوغة الشفتين بدماء
الفرائس القـانية التى لا ترتوى وبعد أن تتـعـاقب الأحـلام

وتنهـار ولا تنى تقـوم من جـديد فى تـلاحق شـرائح اللحم
المـمـزع المشـبـوح على شـواهد الطريق يأتـى الخـوف بل
الفزع المخبوء بعناية من ذلك القاتل العدو الداخلى الذى
يسكن الآن فى المكامن الحـريزة بين الضـلوع البـيلسـان
ليس للغريب كما قلتِ وأنا غريب لا أعرف أن أصل رحمى
أين رحمى؟ لا أعرفهم شَقٌّ الجميز الأحمر جاف على دمه
مـفـتـوح أبداً برودة الـغـوص فى عـالم الجنـين بين الأزرق
والُمحمر والقلب حمامة صفراء الزجاج الأسود اللامع هو
تواطؤ سافر على ذُرى ناطحات فوق شاطئ سيدى بشر
المستباح للابتذال اللبلاب يدور يوثِّق أنشوطته يعتصر
الخصور التى تفيض على كثبان الرمل الهوار والحُب فى
هذا الخضم يصب وينحسر رغبةً شَبَقاً حِسا بالشوق نحو
الجسـد الآخر نحـو الالتصـاق المحموم طلباً للنجـدة من
القمع المحتوم رغوة الكوكاكولا البيضاء تغمر الحريق ولا
تُطفئ الأنفاس السُخنة إذ تهب لاهبة تلهث على حصون
الحس المتوفز الذى لا مَنَعة فيه بَخُور العندل والدارصينى
والمرّ الأحمر أبيضُ النسق يصاعد فى عماية الوهدات

العميقة دوائر غير كاملة الاستدارة أبداً ما تنى تئن شوقاً للنهاية البداية بلا بدء ولا انتهاء الأحشاء مُصوَّحة تحترق وتحرق السَمَندر فى النار وتطسّ الماء الثعبانُ يمجّ اللبن من فمه المفتوح ليس الآن مدعوا للمجئ بل هو مقيم. ميتافيزيقا اللحم تتحدى الحلول والإجابات.

كانت الساعة الثامنة صباحاً يوم جمعة شاتياً، بهذا التبكير جئت أرى صديقى قاسم إسحق فى بيت بَحَرى. لم أجده. طرقت باب شقته على السطح بشدة ولا رد، ووجف قلبى وقلت هل قبض عليه البوليس أخيراً وما العمل الآن.

فتحت لى أم ميخائيل بابها، من تحت، ونادت علىّ:

– يافندى – يا فندى – صاحبك مشى إمبارِح.

– مشى إزاى؟ كده؟ لوحده؟

قالت:

– ماتخافش أُمال. ديهدى – الرجالة برضو وصّلوه لحِدة أول شارع خمستاشر. وسى شنوده شال عنّه الشنطة لغاية المحطة. وقفوا معاه لغايةِ ما خد التراماوى.

تصورت فجأة الضغوط التي وقعت على صاحب

البيت، من ناحية أو أخرى، ربما ، وأرغمته علي العدول عن اتفاقه معنا وعن الجنيهات الخمسة الغالية أجرة الشقة الصغيرة على السطح.

– لامؤاخذة يا سيدنا لَفندى. بقى صلى على كامل النور صليت لى على النبى؟ بقى إحنا برضــو ولاد بلد ونعرفوا الأصول. وإحنا نشيلكو فى عينينا من جُوَّة ياراجل. لكن بقى العين بصيرة.. وأنت كلك نظر. برضو البيت فيه حريم. آه. وما يخلاش الأمر من كده ولا كده. الحُرمة من دول تطلع تنزل تيجى هنا تروح هنا برضو ما يخلاش. واحنا بقى ولاد عَرب، دمنا حامى. مانقبلوش على دمنا إنه يبقى فى البيت طُلَبَه.. شباب يعنى لوحديتهم فى البيت مع الحريم. داحنا كُل من حاله بيدور على المعايش. الجرى ورا المعايش صعب يا سيدنا لفندى، والشرف برضو صعب. ما تآخذنيش إحنا ما نقولش حاجة لا سمح الله أبداً والله العظيم موش مُونكن دحنا رقابينا سَدَّادة وإنتو ولاد أصول آه ما هو الكتاب يتقرا من علوانه، أُمال، لكنى بقى لحدية العَرض ومانقدروش. طَبْ دا أهل الحتة كَلّت وشّنا. مـا هو ولاد الحرام ما

خلّوش، على رأى المثل، وأنت سيد العارفين، وكُلِّيت الحتة بكُلِيتها وحياة سيدى المرسى قالت لغاية كده ولأ. إسمع بقى يا سيدنا لفندى، إحنا رجالة برضو وحنوصلوك لغيية برّ الأمان.

عندما سلّمت علىّ لآخر مرة لحظت فجأة الزرقةَ الناصلة فى وشم الصليب القبطى المورق الأطراف على رسغها الأسمر الناعم، من الداخل. كان الولد فى حضنها - كالأول تماما - وكان نهدها فى فم الثعبان.

الثعبان هائل الجسم ينبسط له جناحان عريضان ثابتان فى الهواء يثب بسهولة من أعلى السلم الخشبى الدائرى، تحت نافذة المنور، جناحاه لا يكادان يرفرفان، حتى يحط على ذروة النخلة العريقة القائمة وحدها فى عتمة الحوش الترابى.

ملامح وجهى مطبوعة على حدقتى عينيه الزجاجيتين.

هل كنت قد قتلتُ أليفته الواحدانيّة التى ما تنى تُبعث حية، أبمجرد الإرادة قتلتُها أم بالفعل. وما تنى تتكرر بلا انتهاء؟

فهل هى يمكن أبداً أن تموت؟

مجانين الله

«أحرقت قلبي أنوارُ وجودك»

السَمَع والراح

دا غِذا الأرواح

والخِلى مرتَاَح

والشجِى حيران

النقوش العربية الخطوط قطع الخيامِيّة الغليظة الحمراء الزرقاء البيضاء جدران القماش التقليدية فى المياتم والأفراح فى المعازى وليالي الأنس، السرادق تتدلى حواليه حبال المصابيح المدورة من حبّات زجاجية لامعة ملونة وبذيئة يضربها هواء الليل ولا تنطفئ، عقوداً مرتخية على بطن غامض الانتساب، تغرقه بضوء جارح الكريّات، موج جاف نافذ الوقع.

وهذا العازف، محنيا علي عوده الدافئ المستكين على حجره بضعةً حميمة منه، منبع النشوة، وأداتها، ومصبّها معا.

لاشك تجاوز الستين، بكثير.

شعره رمادى أسود أملح، ناعم وحىّ، عيناه ضيّقتان مدفونتان فى نورهما الداخلى المتّقد، وجفناه ثقيلان هل يحميان نارهما الخاصة؟

سحرنى وجهه المغضن بتجاعيد رقيقة، مشقوقة دون أن تنفذ للعظم. وجه جميل ومنطو على دخيلته انطواء نهائيا، شفتاه حادتان، فى صرامة الموسيقى التى أصبحت هى نفسها جسمه النحيل.

لمحت ظهره القائم المشدود فى السموكنج الأسود، والبابيون تتدلى عقدته الحريرية الواسعة مرتخية على قميص ناصع البياض.

أهذا المثال موجود، ليس من جماعة الأخيلة؟

مُؤدٍّ كامل. فنى في الموسيقى الجسد المصفى من لوثاته إلا واحدة.

أيحمل فى حناياه فنانا مَوْءُوداً بلا بعث أبداً؟

منطوٍ على أكاديميته التى لقنها حتى أصبحت فطرة، من أيام معهد الموسيقى العربية؟ كأنها طوق نجاة لا

يغوص، لكنه تجاوزها، أصبحت موسيقاه إلهاماً يوميا وليليا حلما يجرى مجرى دم الحياة نفسه.

سألت فى سرى: بمَ كان يحلم أن يفعل، طوال هذه السنين؟

وماذا فعل بها؟

فيم كانت حياته؟ وفيم انقضت؟ وهل انقضت أحلامه - لاشك كانت هناك - أم هى ماثلة لا تمضى؟

لا أراه، لا أستطيع أن أراه، بالجلابية، فى بيت قديم عالٍ بَرَاح، بزجاج ملون مترب عتيق، وراء جامع السيدة نفيسة؟، هل مازال يأكل على الطبليّة التى رافقته أيام صباه وكفاحه، أم هجرها إلى أودة السّفرة فى شقة ضيقة مودرن؟ هل له أولاد وأحفاد، يودونه أم يصدون عنه؟

هل اشتغل مع العوالم ولعب مع التخت العربى فى الأفراح والليالى الملاح؟

هل طلع من شارع محمد على، زمان؟ أم تخرج حقا من معهد فؤاد الأول للموسيقى العربية؟

أكان يوما يحلم بالشهرة والمجد؟ أم بالثورة والنساء؟

أم بالفن، فقط الفن؟

أي بمعرفة حميمة وسؤال لا يعرف حتى أن يصوغ أنّه سؤال؟

وهل أسـقـط ذلك كله من دمـه، أم هو مـقـوّمـه، حـتـي النهاية؟

ما الفاجع في وجهه؟ وفي عمره؟

لماذا إذن هذا الكمال الكامل في أدائه موسيقاه؟ هذا الفَنَاء؟

ألحياته غير هذا الفَنَاء معنى؟

من اللاتي أحبّهن؟ هل بقيت معه زوجة، في حارة من حوارى باب الخلق، أو الحسينية؟ في شارع خالٍ واسع تظلله أشجار الجميز في الحلمية؟ أم تراها، إن كانت قد رافقته، بالحسنى أو ببلاء لا يكاد يطاق، قد غادرته إلى حفيرٍ مهجور الآن، أو ينمو على كاهله الصبّار المسقىّ بطِيب الذكرى؟ في الإمام؟ أو الخليفة؟ أكانت من حبيباته من رقص بدنهـا الغضّ المشـتـهى على كل تأوه عـوده

وسجعه وحنينه؟ أما كانت منهن من غنّت له، في الصَهبة والصبا وصهللة الخمر العتيق؟ في دهبيّة على رقرقة مياه النيل أو في دمدمتها بموج الفيضان الأحمر البهيج الغَضوب؟

أم أنه لم يعرف من الحب إلا تلمسه هذا العود الناعم الاستدارة وحسّ أصابعه المرهفة بموسيقى كأنما لا يسمعها غيره، وكل سعيه اللاعج أن يسمعها معه الآخرون؟

جنون الحب النهائي. الجنون بالله.

جنون لا مكافأة له إلا به، وفيه.

قلت لها: عَرَضية الكمال. الأداء الذي لن يتكرر أبداً. مهدر بعد أن يتحقق مرة واحدة لا سابق لها، لا مثيل لها، ولا يمكن أن يكون. لأن خلود الكمال هنا مستحيل. من يعرف كيف كانت تراجيديات ايسخيلوس وسوفو كليس تُغنّى. وحتى إذا عرفنا - باستحالة تكنولوجية أمكنت - فهي مرة واحدة عند الأوج، لا تعود، تبلغ حد الأبد ثم تقصر عنه إلى الأبد، مهما قاربته المرة بعد المرة، وحتى

إذا مست هذا الحدّ مرة أخرى مستحيلة، فعلى نحو آخر، ومن ثم فهو مغاير.

قالت: فى عكوفك على خلود عَرَضية الكمال هذا تفوح رائحة المومياءات وعطن المقابر القديمة فوح الدفائن. أما حرية الحياة، انطلاقها، عرامتها، فتعنى ضرورة انقضائها أيضاً. لكنها لا تعوّض. يا أخى، مادام الكمال قد تحقق ولو مرة واحدة - فما الذى نطلبه بعد؟

قلت: الكمال فى عَرَضيّته وفى ثبوته - الحق الوحيد. ومادام زائلاً ومستحيلاً، فأين الحق؟

قالت: الكمال المخلد، المثبَّت، المتحجِّر، نسخة وليس أصلاً، شبح، لا حق فيه. انعكاس وليس توقداً لابد بطبيعته أن ينطفئ. الحياة - كالأداء - غير قابلة، يا حبيبى، للتحنيط.

قلت: كم تمنيت لو أن اللحظة - بكل حيويتها - لا تمضى.

أنظرى هذا الكمال فى الأداء - كمال فِعل الممثل، العازف، المرتل، كمال فِعل العاشق، كمال الجنون، مرة

واحـدة ثم يبـيـد ويندثر، أليس قـاتلا؟ هـو بحـده وتعـريفـه زائل، لذلك قاتل. سـاطع كـالبـرق، لا يحـدث أبداً مـرتين. الفن – عَـبْـر نزوات الأداء – مـخـتلف. لمادة الفن ادعـاء للخلود، أو على الأقل ادعاء للبقاء أطول قليلا.

قـالت: حـتي في هـذا الخلود لمادة الفن الأصليـة – هل نقول هذا؟ – أو ادعاء البقـاء، حتى هذا لا أعـرف منه – كل مرة – إلا خبرة عابرة، غير متكررة، خبرة هى منى أنا أداء أيضاً، هي فـي كل مرة غير متكررة، ذاهبة أيضـاً إلى غـير رجـوع. ومـاذا فـى ذلك؟ ألم تحـدث؟ فـيم يعنينى بقاؤها، خارجا عنى؟

قلت: بل أفتقد سارة برنار، أفتقد شـيكسـبير الممثل لا الشـاعر، أفتقد أداءات جاءت وراحت منذ عـهد عـاد، آلاف الآلاف من الأداءات، قـيـان الاصـفـهـانى ومـغنّوه الذين يغـشـى عليـهـم سـاعـة ثم تفـيض أرواحـهـم أمـام جنون الكمال. عازفات الهارب المصريات المنحوتات على الحجر، صـامـتـات الآن وإلى الأبد، المتـرنمـات وفى أيديهن ليـرا هيـرمـيس، والقـيـثـارة العـريقـة، أين أداؤهن؟ أين كـمـاله،

وكيف كان؟ جنود الأوركسترات المجهولون، قبل الكهرباء والأليكترونات وقبل أديسون، أليس حراما أن أداءهم قد قضى وانقضى، كل مرة، انقضاء تاما ومبرما؟ تراتيل الشمامسة ومزامير الأراخنة، موتسارت عازفا وسكْوينسات هيرمانوس كونتراكتوس، ناى بيداس الأجريجومنتي وطرومبيتة هيرودروس الميجارى، قصائد سلامة حجازى لا أشباحها بخرفشاتها وخُنّتها المعدنية وصداها الميكانيكى، منشدو «أبو زيد» الهلالى على الربابة، والمدائح النبوية على الأرغول والسمسمية، عبده الحامولى وعنان الناطفى، اسحاق الموصلى وتلميذه زرياب، وبذل الجارية وألمظ المصرية ومتيم الهاشمية وعلية بنت المهدى وجيداء سيف الدولة وجَبَابة وعزة الميلاء وخليدة المكية.. أين هنّ، أعنى أين أداء ما تغنين به وما عزفوه؟ وكل العشاق الذين قضوا نحبهم بعد فعل للعشق تتيُّما وفقدانا للقلب فى موت العشق.

قالت: يا مجنون.

قلت: أما لهذا الليل من آخر؟

ولا للشوق آخر.

طال السرى، وشطّت الشقة، واستحصد النأى، فأين المرأى ومتى المعاد؟

أما الرصيف والصِنو فقد كانت ساحة سيدنا الحسين ساحته، وكانت فى الخمسينيات براحاً وبراء من الديكور الهش الذي أوقعوها فيه، ولما كنا نخرج من الفيشاوى القديم على وشّ الفجر، مع ألفريد ونجيب وحمدى وأخيه الأصغر عبد الله وصلاح عندما كان مدرسا مازال، كان الميدان رحبته، هو، وملكوته، تتخايل فيه مصابيح الشارع وقد أخذت تشحب ويصفرّ نورها استشراقاً لإشراق وشيك.

كان يلبس عدة جلاليب أحدها فوق الآخر ومع ذلك فان عَظم صدره المضلّع يظهر من ورائها جميعا، يمشى حافيا على الأسفلت، قدماه سوداوان تقريبا مفلطحتان تقريبا أصابعهما عريضة خشنة الأظافر. ويربط وسطه بحبل غسيل.

أشـعث الشـعـر، طبـعـا، وجـهـه طويل داكن السـمـرة وضاء.

قشِف الهيئة ولكنه منير وهادئ السطوع من داخله، وخُلقـانه المتـهـتكة لا تضـيـره ولا تنـال من حـسن مـا في طلعته.

كـان صـمـوتا، ولكنه فـجـأة صـرخ في هدأة آخـر الليل أول الفجر، ولصيحته صدى في الساحة الخاوية:

– مش أنا، مش أنا، هُوَّه..!

لا يبـرئ نفـسـه من إثم، بل فـخـور، على نحـو مـا، بالانتساب، بل التوحّد.

ثم انحنى على نفسـه، كـأنه يناجيـهـا، أو يناجي من يقطن فيها ويملؤه، بلا حوِل ولا نقلة، وهمس.

– يا حبيبي، يا بويا. يا بويا...

ثم صاح من جديد من قلب محروق:

– مش أنا. هُوَّه.. أنا هُوَّه..

أطار طائرا كان يكنّ في صدري.

وكلما سمعت النداء انشرخ قلبي، وندّ النداءُ عنّي.

انطفأت مصابيح الميدان مرة واحدة، بصوت طقطقة مكتومة متتالية، كأنما انكسرت من صرخة وجده ونشوته وشقوته معا. غيّمت السماء فوقه، لم يعد إلا نور شحوب الفجر - كأنه جُوّانى - ينشقّ عنه حبٌ عظيم.

- يا حبيبى.. يا حبيبى..

سمعتُها منه بأصواتٍ ونغمات متراوحة من النقيض إلى النقيض، أصوات نداء وتوجُّع واستنجاد وشهوة، أصوات أمانٍ وتَحَدٍّ ونشوةٍ وامتثال وألم وسعادة موجعة كأنها فى لحظة القذف الأخيرة. من أين جاءت له هذه الموسيقات الشتَّى؟ كلها متآلفة مع ذلك يعزفها شوقٌ مُحيٍ وقَتُول.

ليس فيه مَوْءُود، كله حىّ، لا مكان فى داخله لدفين، أقنومٌ من أقانيم نار متقدة في مادة الجمرة الواحدة المتماسكة، هو والأب، وروح الجنون. لم يعد ثمّ حجاز بين الإلهام والأداء، قدّوسُ الحسين الرث الذى يضحكون عليه ويعيرونه وتعبره النظرات بازدراء، بل أسوأ، بلا اهتمام.

جاءت نداءات الفجر وترددات لغطه فى الميدان

تصطدم بالجدران السامقة وتنزل من المئذنة البيزنطية التي تطعن السحاب طعنة الحب الدائمة، حيّ على الصلاة وباعة الإفطار: لوز، المدمّس يالوز، الله أكبر، أشهد أنّ.. وكانت أعمدة الجامع الرشيقة المتتابعة وصحنه المكسوّ بالسجاد، عتبته الرخامية البيضاء وقناديله المدلاة من السقف العالى أروَحَ فى حِسّى من نجوم الليل المشتبكة متواترة برسالة تحمل الآن هدهدة المخاوف والهواجس مريحة وداعية إلى سلام عزيز.

ثم تقطعنى صرخات باعة الأخبار وأقاويل الساسة ودعوات التحريض أهرام مصرى الزمان الوفد والمرأة المكحولة مقموطة الرأس بعصابة سوداء لها ترتر صفيح يبدو خفيف الوزن هفهافا، وصدرها ناهض وراء القميص البمبى الباهت خشن النسيج فى بياض الفجر، تحت تقويرة فستانها الأسود الذى سفّ أسفلُه تراب الساحة. تنضح عيناها بشهوية خاصة مكتومة ومفضوحة معا: «خُذ منى واذكر حبيبك، مَلْبَنْ والنبى، مهلبيّة». جاءت على مهل ذئاب النهار وحملانُه معاً عساكر المرور وصبيان

مطاعم الفَتّة والكوارع والكباب وباعة السِبَح والعطر والبخور «تمسح يا بيه» العيال البوهيجية بصناديقهم الملوَّنة وزجاجات البوية والعلب المسطّحة الدائرية القهوجيّة يرفعون الأبواب ويمسحون النصبَة ويُنزلون الكراسى من على الموائد الرخام، الأكشاك السهرانة طوال الليل أطفأت أنوارها وصحْوُ حياة الميدان يعود إليه أما حضور الجنون فيذوب فى نور اقتحام الصبح.

صرخته الأخيرة سمعتها لآخر مرة:

– إنتَ، هُوَّ انتَ، كلَّه من تحت راسك انتَ.

قلت: ارتفعت الحشمة عندما تمّت شروط المحبة.

كما ينبغى أن يكون.

مباحٌ – بل منشودٌ – أن تتهتّك فى الغرام.

لا تهتِكْ قلبى حتى التمزّق، لا تهتِكْه، لم يعد فيه خيطٌ على خيط. وليست الهتيكة من شيمتك.

لا، بل لسنا نفعل إلاها.

اجفُنى ما شئت. ابعد عنى، اصمت حتى ما أسمع منك صوتا، لا تنقصُ محبتى. أنت السبب.

لوعة المُسَارّة، كأنما لا يريد أن يسمعه أحد إلاه.

يقف تحت القبّة، السماء الجرداء ليس فيها شيء.

ويهتف: يا حبيبي.

قناديل الجامع صدرت عنها فجأة أصواتُ طقطقةٍ متعاقبة، كأنها طلقات رصاص.

وتكسرت كلها.

سقط الزجاج وانطلقت شرارات الكهرباء الحمراء الخاطفة، بقرقعة خافتة.

وساد ظلامُ ما قبل الفجر.

قرأت فى «المصرى» عُثِر على المدعو متولى ولا يُعرف له لقب وقد مات متأثرا بطعنة من آلة حادة، نافذة إلى القلب. قال الشهود إن القتيل كان من مجاذيب الحسين المعروفين. ولم توجد فى حوزته أوراق تدل على شخصيته. واستدل بعض الأهالى على أنه كان منذ مدة طويلة يعزف فى الأفراح مع فرق العوالم فى شارع محمد على، ولم تصل التحريات حتى الآن إلى دليل قاطع على هويته.

كان حد السكين مرهفا وعذبا وهى تغوص فى قلبى.

لا ألم، بل حس حاد بارد سرعان ما انجاب، خطفه برق في عمق اللحم دفق الدم انبجاس داخلى يغرقنى بسائل ثقيل حارّ ويدى محيطة، بإحكام، بالمقبض، أحس تدوير الخشب وملاسته ودِفئَه.

رسائل الشوق التي أكبِتها، لولا البِعاد لبلّغتُها فاكِ.

هذا القلب الأبلق الفَرْد تعتوره جُثُوم الذِكَر فلا تنال منه أبداً ولا تريم.

الشوق يقتله.

مازلت أحس ضغطة شفتيها حوله. أحسها تستطعمه، بل يسرى فى جسمها كله فيصبح، هو، هى، سخونة تنفسها فى الحِرز الحريز والنداوة المبلولة الحارة نشوة تَوَحُّد مُنزَّهٍ عن منفعة اللذة وهو فى ذُرَى منها متعاقبة تَوَحُّدُ محتوم.

فى الزمن الآخر كنت قد هتقت، مجدفا قليلا ومغاليا قليلا بلا شك، دون أن أعى، فى حُميّا عَرامِ كَمالِ نشوتى:

– الآن لا أريد منك شيئا. لا منك ولا من ملائكتك، ولا أخشى منك شيئا، لا منك ولا من شياطينك. الآن اكتمل

لى كل شىء. ولن تحمل لى الحياة شيئا بعد. لأننى عرفت الوحدة بك.

لا، لم أكن مغاليا فى كثير أو قليل.

هذا بالضبط ما كنت أعنيه.

كان الزجاج مقفلا علينا يُسكت أصوات العالم فى الخارج ويغمر جسمينا بموسيقى حسّية داخلية لا توصف.

لم يزد حبى إلا تماديا.

إلى أين مضينا؟

وتفرقت بنا المسالك؟

قالت: لماذا تصرّ على أن يكون الجنس إلهيّا، ميتافيزيقيا على الأقل؟ الجنس هو الجنس. لا غيره. ممتع صحيح، وعظيم، ومرتبط بحبٍ يزيده غِنى، ولاشك فيه، ولكنه ليس إلا فعل الجنس.

قلت بإيجازٍ وقطع، على غير عادتى:

– غير صحيح.

كلٌّ يُجَن بالله على طريقته.

صحيح أن كل شيء فيه مَسّ الاله.

أما هذا فهو الإلهي، نفسه، لا ريب عندي.

ونشواتٌ إلهية قليلةٌ أخرى.

أما النور فقد كان مطفأً في كوبري السلطان، أعمدته الحديدية الباذخة رصينة الزخرفة تلتمع في نور السماء وحده، والنيل قد انحسر، وهبط، ماؤه رصاصي قاتم وثقيل، قليل الرقرقة، مازالت فيه مع ذلك أثارة من الألوهية المهدرة. هل غاضت دموع رَعْ؟ هل يظل حابي مصفَّداً بين جسرين حجريين مُستَنْفَد القوى، بعيداً عن منابعه؟ ألم يخلف الاله القديم كل البشر من قَطْر دموعه ومنها كان النيل يفيض؟ سيل الدموع الآن محبوس ومتصاعد وعقيم.

كانت أنوار المصابيح الخلفية للسيارات، أمامنا وإلى جانبينا، حمراء ميكانيكية النور متتالية تومض بنبض بارد وتتحرك بصمت في عمق الليل، النور الأحمر يسقط على وجهها الأسمر المستدير المحايد في جماله الأسيل، النور الأحمر ينساب وينسال على شعرها الأسود المنسدل.

- كيمى كيمى

صرختى جرحى المفتوح.

أما الكوبرى فمازال فى الظلام، كأنه هو الذى يتحرك بنا لا السيارة الفولكس القديمة الحميمة التى ضاعت. فكأنها، هذه القوقعة المغلقة الزجاج علينا، هى الأرض قد ثبتت فى لحظة وتأبدت.

شعر كل شعراء العالم، الذى لن أقرأه أبدا، فى الجنون بالله، أجوهرته الدقيقة الواحدة مغروسة مازالت فى السويداء، أم نُزِعت منى؟ .

الدم الأسود الشحيح يتقطر من الثقب الذى تركته ماسةُ الشعر القاطعة، ماسةُ الحب القاطعة.

أفر من وجدى.

إلام المفر؟

كم ركبت الهوى وشطت بى سكراته.

مازلتَ - بعد هذا العمر - تضحكنى قليلا.

لماذا تأخذ هذا - كله - مأخذ الجدّ، أكثر قليلا مما ينبغى؟

أليس هذا ساذجا إلى حد ما؟

لأن هذا كله جدىّ فى النهاية، جدىّ حقا، للغاية، مهما ضحكت منه أو عليه. ثم أن مجرد سؤالك هذا، ماذا يعنى؟ يعنى أنك فعلا توقن بهذه الجدية كلها.

أم أنت تتحفظ عليها؟

وكأننى أريد أن أخرج من شوارع الظلام، من تلك الطرق والسكك والحوارى والساحات التي تضيق حولى ولا إنى أذرعها ليلا فى نومى وفى اختناقات فجرى وفحشى أتخبط بين بيوتها أطرقها ولا أنى أعود إليها، وأعود، مرة بعد مرة، لا خلاص منها أبدا.

سئمت الضرب العقيم فى شوارع الحلم والنوم التي أعود إليها، برغمى، كما أعود إلى بيت متواشج الدروب متشابك المسالك أعرفها كلها حق المعرفة ودائما جديدة علىّ غير مطروقة، أريد أن أخرج منها، أين المخرج؟

أعرف أنها وَهْمٌ ولكن لا حِسّ عندى إلا بوطأة الحقيقة الرازحة فيها، وأنا فى ضلالى وتَيهى ولوعة بحثى عن المخرج. جاحدة هذه الشوارع المألوفة كأنها الشوارع

المُفضية إلى بيتى الذى لا أجده ولا أصل إليه وأعرف مع ذلك أنه هناك. شوارع الحلم الخارقة أكثر وجوداً من أىّ موضع آخر فى أى عالم آخر.

كأننى أريد الشمس. أين هى؟

كأننى أريد أن أحترق فى صيفها، فلا يبقى من جسمى - هذا المُعذّبى - شىء.

لأنه مكتوبٌ أن أزهار الجنون الوحشية لا تتفتحُ إلا فى الحلم.

«دعا باسم ليلى غيرها فكأنما
أطار طائرا كان فى صدرى»
المجنون

«وحبك ما يزداد إلا تماديا»
العرجى

«رأيت سمنوناً يتكلم فى المحبة فتكسرت قناديل المسجد كلها»
ابن مسروق

أشواق المرايا

«مُخايلة وعدمٌ مُحيق»

عندمـا أوشك القطـار على الوصـول، وتبـاطأت دقـات سرعتـه قليلا، كـانت رائحـة البصل في الحـقول، بـالليل، تكاد تغلبنى. كان الجو حـارا ، والهواء شـحيحـا ، والنافذة مكسورة.

كنت قد قررت فجأة أن أسافر، ولو وحدى، بآخر قطار لألحق الليلة الكبيرة، لم أكن قد حضرت مولد مـارجرجس من قـبل، قلت: أسـهر طول الليل في المولد، وأعود بقطار الفجر.

نفـذت بصـعوبة، وسط الزحـام، من البـاب الحـديدى العالى مفتوحاً على مصراعيه، وكنت أنقل قدمى بحـرص وأنا داخل حوش الكنيسة بين أكوام النائمين والجالسين على الأرض، فـى حلقـات وجمـاعـات وعـائلات، افـترشـوا الحصـير والأحـرمـة الصـوف القديمـة والأبسطة القمـاش المتربة، الأطفـال عُراة تقريبا تحت مـلاءات السرير عليـها

آثار البقَع المصفرّة، والنساء بقمصان النوم عارية الأكتاف، والرجال بالجلاليب أو بالقانلة والبنطلون، وبينهم العجائز يقظات متربصات لَمَمَن كَدَش شعرهن الأشيب فى أطرافه آثار الحنة، وعليهن الطُرَح والفساتين قديمة الطراز مغبرّة السواد.

عندما دخلت صحن الكنيسة الغاصة كانت القبة شاهقة ومعتمة، النساء على جنب، غطين رؤوسهن، يحاولن إسكات أطفالهن، والرجال واقفين أو جالسين على الدكك الخشبية اللامعة، يشاركون في الصلاة بالقبطية والعربية. كانت أمواج القُداس الليلى تعلو وتنخفض تحت الأنوار متعددة البؤر من السقف وتحت تيجان الأعمدة الرخامية الرومانية الشكل. صور المسيح وتلاميذه القديسين تبدو باهتة وتحتها نور الشموع أصفر وضعيف. أمام حجاب الهيكل صورة هائلة لمارجرجس يطعن الحية العظيمة، والنور الكهربائى يومض على زجاج الصورة ويكاد يطمس معالمها.

انتظرت قليلا ثم خرجت إلى الحوش المزدحم، ومررت

على باب الكنيسة بالقس فى ثيابه السوداء يصلى ويُعزّم ليخرج الشيطان من امرأةٍ مصروعة، ولاحظت حلل الطبيخ وبوابير الجاز مطفأة تحتها. قلت: تعشّوا من زمان، وناموا، أو سهروا فى انتظار العريس.

كانت رائحة البصل من الحقول قد خَفَّت الآن كثيرا ولكن أنفاسها مازالت معلقة فى السماء المكتومة.

أصداء القُداس غير المفهومة تأتينى من داخل الكنيسة والتسابيح والترانيم من المولد، مختلطة بأغانى الراديو والمواويل وترجيعات المزامير وإيقاعات الصاجات السريعة المجوّفة النبرة وشكاة السمسمية من خيام الأذكار وغناء الرجال القوى الخشن من السرادقات المفتوحة المقامة على قضبان خشبية رفيعة، بين صفوف أكوام البطيخ المفروشة على الرمل وعربات الفاكهة واللب والسودانى والمِجِيلى والكُشرى، وباعة الفلافل التي تطش فى طاسات الزيت الضخمة الفوارة، ونصبات المقاهى المُرتجلة بموائدها الصفيح، ومدخني الشيشة والجوزة، والوشامين الذين تتقد على البرك الخشبية أمامهم فوهات لهبٍ جادة قصيرة من

اسطوانات الغاز الصغيرة يرسمون بالإبر الدوارة الدقيقة، والوشم الأزرق، علامات الصليب على معاصم النساء وصور الشهيد العظيم على صدور الرجال.

فجأة رأيت المرآة الكبيرة القديمة مسنودة من الخارج على الباب الحديدى لحوش الكنيسة.

كان لها إطار مذهب باهت الآن، سقطت قشرته عند الأركان، مشغول على هيئة أزهار وأغصان متشابكة متلوية على الطريقة القديمة بينها وجوه الشاروبيم الصغيرة المدورة منتفخة الخدود، وكانت ناصعة الزجاج، صافيةً بنقاء لا تشوبه هبوة، وعميقة.

كانت ساحة المولد الغامضة بالليل ممتدةً بداخلها، كلها، بأنوارها المتراقصة: حبال المصابيح الكهربية الممدودة والمتدلية، وكلوبات الغاز اللبنية الضوء، ومشاعل النار المدخنة على عربات الترمس، والبرتقال الصيفى.

رأيت الرجل الغريب يقف أمام المرآة، جامداً، يحدق فيها بثبات، لا يتحرك. كان نحيلاً وطويلاً، قدماه الغليظتان تبدوان مفلطحتين ومتربتين فى الصندل المعمول

من مطاط العَجَل وحبل الليف. وكان عليه جلباب صوفى قديم رثٌ نسيجه وخفٌ وتقطع، وظهر تحت تمزقاته جسمه الداكن وعظامه العجفاء.

ورأيت حول رقبته الضاوية - تفاحة آدم كانت كبيرة جاحظة -صليباً خشبياً ضخماً بأطرافه المورقة، معلقاً بحلقة من الجلد الأسود الذى بدا لى فى أنوار الليل المهتزة، غير نظيف تماما.

كان معتمرا بكوفية طويلة كالحة السواد تلفّ رأسه وتنزل على كتفيه.

وكانت عيناه عميقتين ونارهما متقدة فى الحفرتين الغائرتين.

مَنْ الرجل، عم لاونْدِى؟ لا يمكن.. كنت طفلا عندما عرفته لأول مرة، فى أخميم. كان يسرق لى الحلاوة الشَعْر وآكلها منه، خِفية. منذ كم سنة؟ ثلاثين، خمسة وثلاثين سنة؟ أو أكثر. لم تتغير فيه نأمه ولا ملمح. هو نفسه دون أدنى شك، ودون أدنى تحول.

استبدت بى الغرابة فخطوت إليه دون تردد، ودخلت

حيز المرآة الكبيرة.

كانت المرآة خاوية تماما، رائقة وساطعة، ليس فيها أدنى رقرقة.

بينما المولد يموجُ ويغصّ حواليها.

لا الرجل، ولا أنا، ولا شيء مطلقاً داخل الإطار القديم المشغول بالورود ووجوه الملائكة الناصلة الذَهَب.

طلبت روحى، يا نور عينى. وروحى لَك.

رأيته، مرة واحدة.

نحيلاً طويلا. دقيق القامة يبتسم أهون ابتسامة. وجهه شاحب وحليق وأنيق تحت الطربوش المكوى، الحاد الأطراف، مائلاً على جبينه أقل ميل، بذوق وغندرة الثلاثينات المرهفة الحس.

وكان جلبابه سابغاً ومهفهفا عليه، من الحرير السمنى السكروته، وعليه بالطو بلدى جبردين أسود، محكم التفصيل، غالى القماش، ينزل على الجزمة الصفراء، برقبة، أزرارها الدقيقة المتتالية مدورة ولامعة وصفرتها أدكن قليلا من جلد الجزمة.

كنت أقف وراءه مباشرة. أراه هو، ولا أراني، في المرآة.

ليس في المرآة إلاّه.

ثم رأيتها. هل هي التي في داخل المرآة؟ أم هي أمامي، تواجهني، خارج المرآة؟

ابتسامتها لي أنا مُغوية، وعيناها في أنوار المولد صفراوان خضراوان متقلبتان بشهوية. كانت أمامي، فستانها الحرير السمني، تحت الملاية السوداء الكريشة، ينساب على جسم بض، ونهداها يرفعان القماش وتبدو الحلَمتان منتصبتين وراء النسيج المنسدل بنعومة.

كان شعرها ظاهراً تحت طرف الملاية، ملموما بعصابةٍ حمراء تقمط جبينها الناصع المدور، وكان حذاؤها عالي الكعب مدبب البوز صفرته داكنة وسير الحذاء يلف ظاهر قدميها ويحبكه يضغط على اللحم قليلا.

كانا يتقدمان إليّ، بخطوٍ سريع مهاجم. وكانا متطابقين في كل شيء. جسم واحد، ثنائيا مزدوجاً دقيق القِسمة. ولم يكن هناك حولي حركة ولا همسة. تَمَاثُلٌ تام

فى كل شىء حتى حركة الأصابع الممتدة المتقبضة التى تمسك بى. إلا فى ضمـيرى المذكر والمؤنث. حتى نظرة العينين، واحدة، فى حيز المرآة الذى ليس فيه شىء آخر. ثُقبٌ، فجوة، هوة ناصعة نقية مجوفة فى قلب ساحة المولد التى تضطرب وتمور وتعج بالناس والأشياء. فراغٌ صامت فى قلب ضجيج البهجة والاحتفال. وكأننى - أنا - على التخوم. لم أعد منظورا، لا هنا، ولا هناك.

قلت: ليس هذا انعكاسا لأحدهما الآخر.

قلت: كلٌ منهما قائم لا يريم. وكل منهما مخايلة، خَتْل.

الشهيد الرومانى كان قد ضرب الحية العظيمة على شط النهر، تحت سور المدينة، وماء النهر كان يتدفق دما. الحية العملاقة تنتظرنى وتواجهنى بعين لا تطرف. أمواج الدم شربتها الأرض، سدى، هدراً، مضيَّعة.

قلت: لماذا أقول قولى للمياة المنصّبة؟ شفتا المياه لا تحفظان القول.

قلت: كنت أريد المعرفة. كنت أريد الحب. كنت أريد العدل.

سمعته، من داخل عمق المرآة، دون صوت: هذا أوان المحاق، ومطلق الغيبة.

قلت: أشواقُ مرايا الوجود.

قال: وجدانُك إياها فقدانٌ مستديم. الوجود نهاية. أما هنا والآن، فما من نهاية، ولا من بداية.

استدارت إليّ فجأة، وانحدرت الملاية عن كتفيها قليلاً. كان فستانها معلقا بحمالتين سوداوين، تلمعان، وكانت سمراء، مبتلة اللحم، رقراقة، تمدّ لى أصابعها المكتنزة الواضحة المفاصل.

أمامى، أيقونةٌ طويلة مشعة، ألوانها فضية ذهبية، على خشب شفاف فيه شقوق لا تُرَى. النور يصعد إليها من شموع غير منظورة يغذوها الزيت المتقطر من عظام صدرى. وكانت تغدق علىَّ معرفةً لا حد لها، وتحجزنى عنها فى وقت معا. وكنت أريدها. الشهوة والمعرفة معا. وأدركت مدى تعثرى وقلة حيلتى.

قلت: طوّحنى الحلم، وتخبطتُ خلف الأخيلة، يداى خاويتان وروحى قاحلةٌ وسخريتى ملء آذانى.

لكنها كانت تعطيني، بحساب أو بغير حساب سواء. عطّيتها مجدى وتسبيحى. ورأيت أنها محبوسة داخل المرآة. محاصرة. الإطار المذهبَ القديم يحددها، وحدها، وهى بؤرته.

قلت: أهى تتحدى الزوال؟ هل تقف فى الدوام؟

قلت: طلبتِ منى روحى يا نور عينى، وروحى لكِ.

كانت الحدود قاطعة. ما فى داخلها مُرَكَّز ساطعُ النور يؤكد تَعيُّنَها، ويثبته. وفى هذا الداخل كان تغيُّرها هو نفسه وحدانيتها.

كانت تنادينى بكلمات المحبة والحنو، وبذاءات الشهوة معا، داعرةً ووامقة حباً، تدعونى، بغواية لا أقاومها، إلى تخطى عتبةٍ قاتلٌ عبورها. ولم تكن المقتلة ما يُثنينى. قلت: «نفسى ليست ثمينة علىَّ». ولكن الخط الفاصل حادٌ ورفيع مثل سن الشفرة وعميقٌ مثل هوة لا قرار لها. ومجاهدته تبدو محالا. أمد اليها يدى فلا تبلغ شيئاً.

ومع تموج جسدها اللدن، وتضرج الشفتين بالدم، وعمق الكحل على العينين النجلاوين الضاربتين، لم أجد

حرارة لا أدنى دفء. كانت فى داخل المرآة، ليس لها مادة، مع تجسدها. لم يكن هناك معى إلا خواء هذا الداخل البرئ من كل عضوية، كان ملمس فمها المفتوح بارداً ومثيرا. أنفاسها متتابعة مخطوفة تحت شفتىّ، وبين ذراعى استحالةُ التلامس مع أنها كانت تلتصق بجسمى المنتفض. كأننى أواجهها لا أعانقها، كأنها شىء لا يُنال قط. فى مكان آخر، فى موقعٍ لا يصل إليه أحد قط. وهى مع ذلك حميمة ومتقدة بالشهوة والمحبة معاً. لم تكن امرأةً، بل كانت مطلق المرأة، تتضرع وتتسلط، تئن وتشكو وتتطلب، خادعة وآمرة لا راد لها. طفلتى وغانيتى الشبقة بالحب.

اشتعلتُ فجأة، وقذفتُ كما يقذف المشنوق لحظة إطباق الحبل على العنق.

أوقفني داخل المرآة وقال: ومع كل المعرفة، فما من عرفان لك قط. لأنك بلا إيمان.

وقال: وجُودُك داخلٌ مخايل. فما من وجود.

قلت: إلا الحب. إلا الحب. إلا الحب. وحدهَ الحب يحمل

وهم الوجود.

أما هو فقد كان يضرب البالطو ضرباتٍ خفيفةً بعصاه الأبنوس اللامعة، على وتيرة منتظمة، مع ظل ابتسامةٍ لا تكاد تُرى وكان - تقريباً - حانياً وعطوفا. عيناه ثلجيتان بنظرة مسددة إليَّ باستمرار: ألم تكن تريد الحب؟

قلت: وأردتُ المعرفة. وأردت العدل. وأردت الحرية.

قال: والصبا المقيم؟

قلت: كنت موقناً أنني سأموت قبل العشرين.

وقلت: وقبل كل شيء أردتُ الإيمان. عرفتُه فهل فقدتُه إلى الأبد.

قال: السؤال سؤالك. والباب موصد، بإرادتك.

فلم أجرؤ - وهل ترفعت - أن أقول: لا. الإرادة مطلقة.

ألم يقل شيخنا جلال الدين، «إن غير العاشق وحده، يرى نفسه في مرآة الماء.» في حلم الماء، في ماء الحلم، صورة الوجود هي استحالة الوجود. الباطن وحده هو مُخايَلة المتعيِّن يُحيق به العَدَم. أما العاشِق الحقُّ فلا يرى

فى المرآة إلا الفناء.

قلت: لا وجود عند ظهور هذه السطوة.

كان جرس الكنيسة يصلصل مليئا وقوى الرنين، ويقرع تجويف السماء النحاسى بدقات تُلقى كتلاً صماء تغوص فى روحى وتخبط القاع.

أحسست أن أطراف أصابعى تتوتر وترتعش وكأنما ينطلق منها شَرَر متعاقب لا أراه، يدى ممدودة حتي آخرها، هى وحدها ضارعة، مستقلة عنى، تخترق حاجزاً لا يلين لا يهتز لا ينفتح إلا بمقدار نفاذ أصابعى منه. ثم سقطت الأصابع، مبتورة من جذورها ورأيتها بهدوء، بما يشبه اللامبالاة تنفصل عنى، كأنها لم تكن تمتّ لى بصلةٍ يوما.

وأحسست المرآة تشطرنى وعرفت أننى أتلاشى، ولم أكن فزِعا بل مطمئنا وراضيا، وقلت: وليس عندى من قول.

بيت قديم

«الزمان خيالات مقطوعة»



مازلت أرانى أسير فى الصباح الباكر الساكن، تحت سماء لؤلؤية، إلى البيت القديم.

أسير إليه، وأنا أحمل فى داخلى شوقا مُمِضّاً وعميقا، وحِسّاً بانتماء لا ينفصم إلى هذا البيت، ولوعة لفقدانه.

أعرف أننى لن أسير إليه أبداً. لن أدخله مرة أخرى، أبدا.

خطواتى - فى هدوء الحوش، بعد أن أغلق خلفى باب الشارع الكبير، تحت الجميزة العتيقة - لن تحدث.

أخطوها، مع ذلك، على الدوام، من غير وصول.

أعبر عتبة الباب الرخامية، حافتها الناعمة غاصت فى الأرض، عليها نقوش كتابات هيروغليفية كادت تمحى، ماثلة مع ذلك تستجلب البركة تستصرخ الذكر.

أعرف أنه على هذه العتبة الخفية مرّ من قبلى بيبى مارتان ومحمّد ناجى، وراغب عياد وكامل التلمسانى،

جورج حنين ورمسيس يونان، موسكاتيلى وسَنَد بسطا، كاترين سُرْسُق وبولا العلايلى، وغيرهم ممن لا اسم لهم، هولاء الذين عذبتهم أرواحهم وطوّحت بجسومهم النزوات والمعاشق، ومفازع مجرد الوجود، وأنه هنا حُسمت مصائر أو عُلقت إلى الأبد دون قرار، رُسمت أقدار وتجسدت شطحات شعر هذا البلد.

لكن الحوش كان دائما خالياً، من غير وحشة، مكنوناً داخل الحيطان السميكة السامقة، بأحجارها التي تضرب إلى الرمادى الفاتح، لون قديم، نظيف. تظلله أشجار كافور وجزورينا عفية وارفة، تنفى عنه فجاءة كل ضجة القاهرة، وتضفى عليه سكوناً، وسلاماً لم أجده في أى مكان آخر، ربما لأنه كان يُعِدّنى لمحبةٍ، ورضى، لم أجدهما فى أى مكان آخر.

أحجار السلالم العالية الدرجات، محصورة بين حائطين فى بئر السلم الضيقة، تبشّرنى، كأننى أسمع من ورائها طنين حياة مليئة بالقوة والوعود.

وعندما ينفتح الباب المحكم الوثاق، أخيرا، تهب علىّ

أنفاس البيت الهادئ حميمةً وصافية.

مازال أعز مواقعي.

أعود اليه - واليها - بلا انقطاع. وكأنها لم تبارحه قط، ولم أبارحها. كل الدراما، كل الحب، كل النشوات، كل سكرات الجسد وكل أمجاد الروح، مازالت، كلها، فعّالة.

ناداني قلبي إليك، لبّيته لما ناداني..

وهل تصورتِ لحظة أنه قد يمر يوم من غير اهتزاز الحنين، والحنان؟

أي يوم؟

نداء البيت القديم، نداء القلب القديم.

في القاعة الوسطانية الفسيحة، حجر حيطانها مازال ببياض لحمه المَبْرِي، دون طلاء، ودون ملاط، أرى لوحات السجاجيد المعلقة على الحائط، منسوجة بالخط الفارسي والكوفي، تنطق بأشعار الحب والآيات، تهزها نسمات غير محسوسة فتنوس برفق على جسم الحيطان. الفوانيس العربي النحاس يتقطر منها ضوء المصابيح الكهربائية

الصغيرة بيضاء الشموع عبر ألواح الزجاج الأصفر السداسية الشكل. يسيل هذا الضوء بمياهه الساجية مازالت حتى الآن دافئة مثيرة تجعلنى أنتصب فجأة، أنزل معها إلى السجاجيد العميقة الوَبَرة المفروشة على بلاطات الرخام، طالما صنعنا الحب فيها، وتقبلنا فى قبضة جنونه وعربدة سكراته، بينما نافذة المشربية العريضة تعطينا جمال العالم، ونوره، وتحجب ضراوته.

قلت: لا شىء، لا الزمن: لا النسيان، لا الجسم الذى يناله الوهن بقادرٍ على أن يأخذ ذلك الذى حدث. انه باق، أبدا.

قالت: يا ليت! هذا مجرد تقرير رومانسى. الزمن يمحو كل شىء كيف نصون حبنا من سطوة الزمن.

قلت: أبداً لن يمضى. ليس فقط لأنه موضع إعزازٍ خاص، بل لأنه يقوم فى الروح، باستمرار، من جديد.

قالت: كم من أشياء تحدث، ثم تؤخذ فى قبضة الانتزاع، تذهب كأنها لم تحدث قط. فلماذا يستعصى ذلك وحده على المضىِّ، والغيبة.

قلت: لأنه – مهما تقطعت أمشاجه – يحياً دائما من جديد. ويُحيى دائما من جديد.

فتحتُ الباب بمفاتيحها، ودخلت. أحسست البيت مستوحشا، وكانت ظلمته فادحة. قلت: «لا بأس. سوف تعود بعد قليل». كنت في المدخل الذى أعرف أنه يفتح على القاعة الوسطانية، ويفضى من اليسار إلى غرفة النوم. الأنوار فجأة لا تضئ. حس الوحشة يعضّ قلبى، موجعاً، لا يبرأ، أبحث عن أزرار النور، لا أجدها، لا أجد شيئاً. كل شيء ينكرنى. أسير خطوتين، لا أرى أمامى، ذراعى ممدوتان، ومع أن الظلمة مطبقة أغمض عينى، كأننى بإرادتى أنفى الظلمة. أين أزرار النور؟ هل هى فاسدة نالها العطب، ثمار عطنة تحللت وسقطت؟ أين هى؟

أحس نفسى أشهق، وقعت يدى أخيراً على زر النور الذى يشبه أسطوانة صغيرة جدا من النوع القديم الذى تضغطه إلى الداخل. النور فى الفوانيس الكبيرة يشتعل، على غير انتظار، يعطى بصيصا ضئيلا مُصفَرا، يهتز،

ويخفت ثم ينطفئ نهائيا بصوتٍ كأن فيه صدمة خبطة واحدة أخيرة.

أجد الهواء يندفع إليّ، من أين؟ من النافذة، من الباب، من السقف؟ لا أعرف. الجاكتة تهتز، تتطوح حولي، وترتفع تحت هبوب الهواء المتضارب التيارات، كأنما بفعل أيدٍ غير ملموسة. هُنا قوى حية، وغاضبة، قد خلت لها الساحة، حضورها لا يُرد، وعملها لا يُفضّ، ولفْح أنفاسها فيه نيّة غير معروفة.

أرى في الظلمة المتقلبة حولي شيئاً أبيض، غريباً، أحسه أثقل قليلا من الضباب وأخف قواما من سحابة، بارد الملمس، ينحني عليّ، ويلُفني.

أنادي بكل طاقاتي. كأنما ندائي ترتجُّ له السماء والأرض.

لا يندُّ عني صوت.

شفتاكِ في الزمن الآخر، تبدآن باردتين رطبتين، ملمسهما مُنعش وطري. ثم ينالهما - معي - هوس العشق. فيهما، تحت شفتي، كل حياتهما الخاصة،

كل حياتهما المستقلة، كل التنزى والتقلب كل الحب كل الوَهَج والتلمس، كل التلاصق رقيقاً وملهوفاً ريانا وجوّاسا، وادِعا ومعابِثا، شرسا وراضيا وناعما، مستفزا داعيا ومستسلما.

لماذا يا حبيبتى لم أعرف هذه الحياة وتلك الحرارة فى شفتيك، عند حلول الزمن الأخير؟

بينما أنت في حضنى قد اختُزل الكون فيك، والزمان.

رسالة شوقٍ فى زجاجةٍ مختومة مرمى بها فى اليَمّ، هل ترتفع بها الأمواج وتنخفض بلا انتهاء، غير مفضوضة، لا تعود، أبدا، بردّ؟

وكالمعتاد تظل الأشواق صَمُوتا. من جانب أو من آخر؟

كل الكلام أبداً بدون كلمات.

جسم البيت القديم جسم الحب القديم يحيط بى من كل جانب، وعيون الحب النجلاء تهاجمنى وتطعننى لا تطرف لا تتوقف.

كان رخام جسدك الخمرِى الحار، فى سمرة الغروب،

معجوناً بالحب والألم الذى لا يريم. جماله قهرى شامخ، وما أطوعه بين ذراعى، ما أنعم لدونته.

قلت لى: وقائع الحياة ليست فى شعرها، الشعر فى النهاية لا يقين فيه. ولا اطمئنان له.

بصوتك المدرَّب المتقن، وثيراً ومشحوناً بطاقة جنسية سيالة.

قلتُ لك: هو كل اليقين. مادامت الحياة – كل الحياة – سؤالاً ليس له من مجيب.

وأنا على مشارف الحافة، فى صباح النهاية الذى لا يَحُول نُوره الغريب، مازلت أقول: لماذا سار كل شىء على هذا النحو؟ لماذا؟

مازلت أريدك. وحدك أريدك. فى الشعر ليس فى ركام الوقائع. كأن الشعر هو الواقع الوحيد عندى. فهل استئثارى بك فيه، أنانية، ولَجج الطفولة؟ أم هو بذل نهائى لا يمكن أن ينتقض ولا أن يَنقَضّ. مازال الحب يفيض من قلبى، كالنزيف. أيظل يسقط على تراب هذه العتبة المدفونة في الأرض؟ أين زهرة الدم الحمراء

وحشية الجمرة المتوقدة بالشوق؟

كانت القبة الضخمة أمامنا، ماثلة عبر المشربية، اسودت بفعل الزمن، تدور بها كتابات بارزة من الحجر لا نعرف كيف نقرأها بيننا وبينها سطوح بيوت القاهرة القديمة متراكبة متمايلة، تقطعها فتحات المناور المسقوفة بزجاج مترب، رُكنت فيها عِمدان خشب بالية وصفائح صدئة وبقايا دراجات وصناديق وكراتين وأقفاص وقفف منبعجة بالكراكيب، كل مهملات الحياة جففتها الشمس وصوّحتها ونظفتها من كل لحمها وسوراته، أعشاش الحمام الخشبية يصدر عنها هذا الهديل العميق، حزنه رتيب ممل، مستمراً وعنيدا لا يسلّم بنهاية أي شيء.

كان هذا يقيني.

قلتُ: من بين المفازع الكثيرة التي يغص بها العمر المضطرب – على الرغم مما يبدو على سطحه من رتابة وتَمَكُّن – يأخذني رعبٌ أنني لن ألتقي بك مرة أخرى، أبداً.

قالت: حسب الشائع المشهور نحن لا نلتقي مرتين

أبدا. العودة العودة حلم مستحيل بطبيعته. كل لقاء نسيج وحده له طعمه الخاص، حلوا أو مرا، وله مقوماته وحده.

قلت: لا، هذا الرعب يقول لى: «لا، ليس هذا. لن تلتقى بها أبدا، بالفعل، أبداً بعد». وعندئذ يُفقدنى الهلع كل صواب. وأريد أن أصرخ بأعلى صوتى: لا. لا. لآه.

قالت: اسم الله عليك من الرعب والهلع. إذا أردت أن تصرخ اصرخ يا حبيبى، لكن ليس من الرعب والهلع.

فضحكتُ من نفسى، على نفسى، كالمعتاد.

قلت: ومن المفازع القديمة الأخرى أنكِ لم تعودى تعرفيننى، لم تعرفينى قط. ولا يهمك هذا على أى حال.

قالت: وهْمُ التثبيت. وهم العودة الدائمة. لابد أن تكسر الدائرة.

قلت: ومن ثم أعود إلى كلمةٍ قديمة لك - هل قلتِ لك إننى الآن أكنزها وأُحرزها، هذه الكلمات - الماسات التى لك، لأنها وهآجة وقاطعة معا؟ - عندما قلت لى: «إننى أحبك. سأظل دائما أحبك» أما أنا فليست بضاعتي كلها إلا كلمات.

قـالت: أنت طـالما.. طالما رددت حـتى حـد الهـوس إن الكلمـات لا تعنى شيئاً وحدها.. أنا أيضاً قلت هذا كثيرا لكنه غير حقيقى.

قلت: أحقّ اننى لم أُقدِّم اليك إلا شعرا؟

قالت: وهل الشعر قليل؟

قلت: أما أنتِ فقد وهبتني سطوع المجد، ورهبته. وقدة الحب الذى لا يطاق، وسَوْرته. مـازلت أتوجس حـتى من الاقتراب بالذكرى من نور هذا المجد، لأننى أعرف أنه لا يُطاق.

كيف احتملت فى البيت القديم عبء كل تلك السعادة؟

وكيف أستمرُ فى احتماله؟

مـا جـدوى الكلمـات مـا جـدوى الكلمـات مـا جـدوى الكلمـات أريدك فى حضـنى أريد أن أعرف حـبك أريد أن أعـود إليه أريد أن أبدأه من جديد كمـا لم يبـدأ قط أريد جسدَ الموسيقى لحمَها المليء لا صداها ولا ظلها البعيد.

قلتُ: سوف يأتى الصمت وشيكا. قريبا جدا.

سوف ينقضى زمان الكلام.

كنت أهمّ بأن آوى إلى سريرنا الفسيح، تحت لوحة النسيج الكثيف الذى يصيح فيها الديك الأحمر الخيوط، مشتعلاً، يفتح منقاره الكبير رافعاً رأسه بلا صوت، لا يعطى نفسه راحة. كانت قد سبقتنى. كنت أعرف أنها نَضَت الآن فستانها الأحمر الحرير المنقوش بالأبيض، وأنها تخلع السوتيان البيج الصغير الذى يفيض ثدياها على جوانبه، بشريطه المطاطى اللدن الذى يحبك ظهرها البديع المكين، جسمها السامق اللين المطواع حُرٌّ الآن، صدمة جماله عندى، فى كل مرة، جديدة تخطف أنفاسى.

رأيت فجأة أن القرد المقدس يقف على باب الغرفة المفتوح، يحجبه ويسده، كان فى جسمه المجعَّد لمعان الجرانيت الأسود، جلده الداكن متغضن الطيات، وشعره الكثيف يرسل شررا كهربيا تقشعر له روحى.

وكانت حول عنقه، ووسطه، عقودٌ من الفضة وحبات الفيروز، لها صليل على جسمه الصلب.

كان غير إنسانى، غير عاقل. وقريبا جداً منى أعرفه تماما، ويرانى. مدّ يديه وأطبق على عنقى.

١٩٨٩/٨/٥

النزوة السادسة

اليقظة في المعتقل

وكأنما تيقظت صباحاً فى معتقل صحراوى.

أجد نفسى في العنبر، وحدى.. تركنى كل الناس.

إلى جانبى بدلتى معلقة بمسمار على الحائط، تهتز.
وعلى صندوق خشبى مقلوب أشيائى اليومية فقط: فرشاة الأسنان والمعجون، عدة الحلاقة، وكتاب شعر انجليزى.

العنبر واسع وخاو، ليس فيه إلا سريرى الحديدى الضيق وعليه المرتبة القش الهابطة فى منتصفها. اصطدام قدمى بالبلاط له صدى.

أفهم، بشكل ما، أن زملائى - من بقى منهم في المعتقل - مازالوا هنا، فى مكان ما. ولكنى أحس مع ذلك أنهم ليسوا هناك.

كنت بالليل - فى الحلم ربما؟ -قد أحسست أننى وحدى الآن، تماما. وأعرف مع ذلك أن هناك حضوراً آخر. هل هى ذئاب، ضباع، كلاب الصحراء؟ أسمع صوت خطاهم المسترقة، أشم رائحة الحيوانات البرية،

قوية ونفاذة، أنفاس هذه الحضور الفاهمة غير العاقلة، كأنها عليّ، في ظلمة غير كاملة.

استيقظت الآن تماماً، وقمت.

كل شيء مهجور وخاو. لا حرس. لا أحد. الصحراء فقط.

الباب الحديدي في وسط سور السلك الشائك معووج وموارب قليلاً.

قلت: إذن فقد خرجوا، كلهم، وتركوني؟

أجد نفسي دون عائق، في الخارج. في الصحراء.

كانت الرحلة في مراكب الليل شاقة.

هل انتهت الرحلة، وآن لي أن أحط الرحال؟

امرأة أعرابية، ملففة بثياب سود قديمة، فضفاضة وثقيلة، حالت خضرتها المطرزة، تقف على جنب، على غير.. مبعدة من المعتقل المهجور، تدعو لي: ربنا يعمر بيتك، ربنا ينوّر لك طريقك.

ينوّر لي؟

في نور هذا الصباح الباهر، الموحش؟

أصل إلى الطريق الصحراوى، والعمّال يشتغلون فى نصف الطريق بالطول، النصف الثانى شكله سخن وطرىّ، والأسفلت فيه لامع السواد، ومعدات الرصف واقفة، ضخمة الهياكل، حديدية الأذرع والبطون.

أراهم مشغولين عينى، كلهم، لا أحد يرانى.

أحس أننى هارب، خرجت، هكذا، دون تصريح، دون أمر إفراج. مازلت سجيناً وليس حولى إلا امتدادات الرمال، بلا نهاية على الجانبين.

صحارى الوصال خاوية، فكم بالحرى بِيدُ البعاد.

جاء الأتوبيس، على نصف الطريق المسفلت القديم. هل مكتوب عليه بخط ردئ لا يكاد يقرأ: الطور السويس؟

لونه الأخضر الباهت صدئ تساقط طلاؤه فى بقع غير منتظمة بَانَ فيها الصفيح المغضّن المتقبّض. الأتوبيس متهالك ولكنه شغّال، والمحرك له أزيز قوى. عنيد.

عبء على كتفى أنا وحدى، حريتى، فرحتها المكبوتة فى قلبى لا يعرفها أحد.

لا مبالاة الناس. والأشياء. والعالم.

عندما صعدت إلى الأتوبيس تحت نظرات الركّاب التى لا معنى لها، بدو ملففين بالأبيض المصفر، وجنود، واتنين تلاتة أفندية، رثاثتهم تتأكد فى سطوع الصبح، وفى يدى شنطتى الجلد الاصطناعى القديمة، مطبّقة، لاحظت لأول مرة أن جزمتى بوزها مفتوح، وأن نظارتى مكسورة الإطار، مربوطة بسلك.

عندئذ تيقظت.

لذعة الخجل العتيق نفسها.

مهما كنت متحرراً، وثورياً حتى.

أدارى شرابى المقطوع بأن أدسه فى حذائى، وأنا أطلع الطريق الطويل الصاعد إلى ربوة المدرسة العباسية الثانوية فى محرم بك. أتلفت خلفى، هل أفلت الشراب من ظهر الجزمة، وظَهَر الفتق الفاغر عن الكعب العارى؟ ونحن، تلاميذ سنة ثالثة ثانوى، بدوى وجورج وحسن، نتحدث عن اجتياح قوات هتلر سهول أوروبا، عن هزيمة دنكرك، عن الطيران النازى الذى لا يقهر، وأقول فى حماسة لا انطفاء لها أبدا: لن تنتصر الفاشية، هذه طبيعة الأشياء.

يا لإيمان الصبا الفاخر!

فى ٢٦ فبراير ١٩٠٧ اجتمع مجلس النظار فى الساعة الثالثة بعد الظهر فى سراى عابدين العامرة تحت رئاسة الجناب العالى الخديوى. ووافق على ما يأتى:

أولاً : تعيين فتحى بك زغلول رئيس محكمة مصر الابتدائية الأهلية وكيلاً لنظارة الحقانية.

ثانيا: تعيين المستر دنلوب مستشار نظارة المعارف العمومية رئيساً للجنة العلمية الإدارية، وتخويل سعادة ناظر المعارف سعد زغلول باشا تعيين من يقوم مقامه أثناء غيابه.

ثالثاً: تعيين كل من أصحاب العزة عبد الخالق ثروت بك مديرا للإدارة القضائية للمحاكم الأهلية بنظارة الحقانية وأمين بك على رئيس محكمة الإسكندرية الأهلية وأحمد ذو الفقار بك بمحكمة المنصورة المختلطة مستشارين فى محكمة الاستئناف الأهلية.

وقالت «المصرى» مع أنباء اغتيال النقراشى باشا على

أيدى الإخوان المسلمين، فى ٢٩ ديسمبر ١٩٤٨، إن وقف المرحوم السيد محمد شريف باشا الكبير ١٥٢ شارع محمد على بمصر تليفون ٥٩٥١٥ يشهر مزاد بيع القطعة ٤١ بتقسيمه بمنيل الروضة ومساحتها ٦٣٩م بسعر المتر ٣ جـ فلراغب الشراء المعاينة والحضور لمحكمة مصر الشرعية بجلسة ١٦ يناير ١٩٤٩ ومعه التأمين وسألت أين تذهب هذا المساء؟ وأجابت بأن الفرقة المصرية بدار الأوبرا الملكية اليوم عطلة وأن شكوكو وفرقته بمسرح الأزبكية ت٥٦٣٤٠ سامية - كارم وفرقة بديعة وببا كازينو بديعة استعراض أبو طرطور ألحان موسيقى وحلمية بالاس ت ٦٢٠١٧ استعراضات - زوزو كوكا وسراج منير فى إيزيس لص بغداد بالألوان الطبيعية وناطق باللغة العربية.

هل كنت يومها فى معتقل أبو قير؟

لم نكن قد رُحّلنا بعد إلى الطور.

ولم أكن قد استيقظت لأجد نفسى فى حلم المعتقل المهجور والصحراء التى يشقها طريق مثل طريق

العباسية الثانوية، أو الطريق الصحراوى الذى كنت أشتغل فيه مع خالى ناتان، جنب الرست هاوس.

ولا على كوابيس اليقظة التي تستغرق، كل يوم، أبداً من الزمن، وهو مازال على حافة النوم حافة الموت عندما يجتاحه رعب أن الحياة قد انقضت، من غير جدوى، ومن غير معنى، الجهاد الحسن والاستبسال أياً كانت حماقته، - أو نبالته ربما؟ - والرمى بالنفس فى وجد الاستعداد للاستشهاد من أجل أشياء أياً كان تهافتها وسخفها - أو سموها ربما، وسحرها على كل حال - والخيبات، والجبانات، والخذلان، والصمت، والتقاعس، والقسوات، والكدح المتصل من أجل الحب، والرزق، وشهوات الروح. انقضت، ولّت، انحسرت، ولم تبق أمامه إلا أيام المرض والعجز والألم، الهواجس الموصوفة فى الكتب، والوساوس المأثورة وطأتها ليست أقل لأنها مكتوبة ومعروفة، وصور النهايات المحتملة والمتخيّلة المضروبة قدراً أو المضروب ميعادها بعمد وإرادة في فعل نهائى مرتب ومقصود ومعد بعناية، أسوف يأتى فى الظلمة غير الكاملة؟

فيقوم منتفضاً، يوقظ معه الموسيقى الكامنة، ويتلَّهى بطقوس الصباح، دون تلهية، يا فتَّاح يا عليم، اصطبحنا واصطبح الملك لله! أم هو الطريق الترابى الضيّق بين دكان عمّ شنودة البقال فى الطرانة والسور الطويل المبنى من الطوب اللبِن، مازلت أقطعه؟

باب دكان عمّ شنودة قد صغر وضاق، أصبح كوَّة لا أعرف كيف يمكن أن يخرج منها أحد. السور مازال طويلاً طويلاً لا آخر له، سور بيت الشيخ علوان الحائط السدّ فى الطرانة، سور الجبَّانة فى الشاطبى سور سينما ماجستيك المحترقة سور الجنينة القبليّة فى الصعيد حيث قتلت هنيّة سور الروح المحاصر المحيق، وكأننى أظل أذرع هذا الطريق، تحت هذا السور، بلا وصول.

قالت له إن فرانسيس بيكون قد مات قال ألم تلحظى قطّ تأثير جوجان الوحشى عليه؟ قال كان ذئباً مستوحشاً والعالم عنده دغل متفجِّر شائه قالت ألم يكن يعشق الغلمان أو يعشقونه؟ قال ولم يكن يسقط كأس الشمبانيا من يده أو لا يكاد، قالت تشكيلاته تشويهات قال موّارة

بالحُمم الجسدانية الحارة، ألم تكن المسوخ أمشاجا وأبضاعاً تنز وتنزو بدم اللون؟ وتستصرخ بلا مجيب؟ قال إن الحوشيّة عندهم فى أدغال الألوان والأهواء، فنون وشجون.

قالت إن صديقه بشاى أبسخيرون حوشى المنازع فى الرسم وفى الشبق سواء.

قالت له عندئذ فقط: أنت الحوشى المؤدَّب، وأما هو فقد كان لجوجاً وملحاحاً وهو يعرض علىَّ أهواءه «الحوشيّة» - كما تقول أنت الآن - قالت كنت أصدّه برفق مرّة ومرّتين ثم بحسم حتى ارعوى!، قال لها مرّة فى سان فرانسيسكو قضى ليلة مع مومس غالية الثمن فى غرفته، وسكر، ولمّا استيقظ وجد نفسه عارياً تقريباً، بالفانلة واللباس، ووجد غرفته أيضاً شبه عارية، اختفت لوحاته وكتبه، هذا ما أحزنه حقاً، للحظة. واضح أنها كانت شرموطة مثقفة أيضاً إلى جانب أنها لصّة، فقد ذهب معطفه الفرو الفاحش الثمن، وسلسلة ذهبية ١٨ قيراط غليظة وثقيلة كانت تسقط من عنقه حتى بطنه، وكل ما فى

محفظته من أوراق النقد الأمريكية والفرنسية وأخذت أيضاً جواز السفر ورخصة السيارة التى كان قد تركها فى باريس وبطاقة الائتمان الخاصة التي لا تنفع أحداً غيره، أعلى سبيل انتقام ما؟ لكنه - بطبعه - لم يبالِ كثيرا، أو قليلاً، ترك الأمور كما يتركها دائماً تجرى فى أعنّتها، فلعله كان قد نسى رقصته تلك معك، وأنا أهشّم بيديّ العصبيّتين أضغاث الورد القديم، كما نسى يقظته تلك فى غرفة سان فرانسيسكو، فى العراء.

قال لها ألم تفتحى له، ليلتها، ثغرة نور خضراء فى قلب انصباب السديم الأصهب الأرمد الكابى؟ ألم تكن أصابعك تدغدغ الشعر الكثيف فى مؤخرة رأسه المحنى عليك بلهفة وأنتما ترقصان؟

أتلك عادة من عادات الرقص عندك؟ فى تلك الليلة الأولى كنت تفعلين ذلك نفسه مع الفلسطينى، فى شرفة من بيت موسكوفى عربى التصقت به، وعبثت بالشعر فى مؤخرة عنقه وأنت ترفعين إليه عينيك الواسعتين الضارعتين. ولدهشتى، ومفاجأتى قذفت أنا، كأننى

تقمّصته. ونمتِ معه، كي تقولى لى على سبيل المفارقة إنك تحبيننى أنا.

ليلة أن كدت أموت، فيزيقياً، وأنا أقذف بأحشائى وبالعالم كله معاً، تحت الدوش، هواناً ورفضاً. وبعد نصف نومة تنفضها رجفات الألم المتّصل جئت تودعيننى فجراً، وتيقظت على رسالة منك لم أتحقق منها، حتى الآن، رغم المواثيق والمحبات.

كنت أسحق بين أصابعى أوراق وردتك الناعمة المخمليّة، رطبة بالندى السخن حرّيف الرائحة.

لماذا جروح العشق لا تندمل أبدا؟

صعب ترويض الذئاب، وثمرة الفن - والعشق - يستحيل كبحها وإن كان جموحها قاتلاً. عطور الحريم لا تهدهد من غلوائها، ولا قطر الياسمين والميموزا واللوتس، ولا عجينة عنبر كشمير الداكنة لزوجتها المتماسكة وبرودة ملمسها عليه إذ تدلكه بها وهو نائم مرتخٍ شبعان بعد سورة الهجوم. مسكة حنانة وحاسمة ومتوتّرة ومحنّكة فيتنبّه ويشتدّ وتتدفق فيه من جديد دماء العشق والفن وقد

خزلت منها تدويرات أعضائها وطيّات أثدائها وتنزيات أطرافها وعكنات بطنها حقاق طرية مليئة بدهن اللبان المياه الذهبية اللبنيّة تنبجس فجأة لها دوى طبل العالم قرع الصنوج فى الخواء الممتد بلا نهاية.

تلك يقظة.

واليقظة الأخرى الأنيسة فى صباحات هادئة ووديعة على أصوات الشارع الصغيرة: تنفيض المرتبة فى بلكونة مجاورة صوت الراديو وحوار عائلى صباحى يصل بعيداً غير مستبين المعالم أصوات أليفة ليس فيها اقتحام بل تبطن الصباح بحشو رقيق الجسم دردشة الجيران من الشبابيك وعبر البلكونات تأتى من غير وضوح تخبو وترتفع فجأة وعنها يا ستى إديته كلمتين فى عضمه هوّ انا حاسكت له برضو، فَشَر وغلاوة وِلادك بلاش وغلاوة وِلادى ويروح الحوار فى تضاعيف نداءات البيّاعين من تحت بيكيا روبابيكا المدمّس لووز جمبرى عنبر جمبرى بنّور البصل البصل الجديد بساريا لوف الحمّام صوت احتكاك المكنسة القشّ بالبلاط وسقوط قطرات منتظمة لها

إيقاع رقيق من حنفية الحوض فى المطبخ كلك عسل يا
توت أهرام مصرى الاثنين والدنيا اقرا فكرى أباظة
احتكاك عجلات ترام الرمل بالقضبان وصلصلة جرسه
البهيجة وترداد هديده بين الحيطان حسّ الملاءة النظيفة
واللحاف غير ثقيل ومطمئن حس جسمه بينهما وتماس
فخذيه وتوتر ما بينهما فى غير تطلّب لشىء ما الآن وحتى
عند صعود صوت ملتاع من الشارع إلهى يهدّك يا شيخ
بحق سيدى العباس المرسى لاحسن دا حرام عليك حرام
والنبى بقايا زقزقة العصافير المتقاطرة القليلة الآن فى
قلب أوراق الشجر الملتفّة تخترق هذا الصبح العالى
بطعناتها الحادة ربنا ع الظالم روح يا شيخ ربنا ع
المفترى خفوت الدعوة اللاعجة فيها قبول ورضى مضمر
وترك الأمر للتصاريف غير المحسوبة وانبثاقات قصيرة
لنفير السيارات العابرة القليلة وأغنية على محمود طه
المهندس من الراديو كليوباترا أى حلم منْ لياليك الحسان
ينادى فى تنغيم يبدو شجيّاً فى هذه اليقظة بالصوت
الحلو الذى آل إلى كهولة ناضجة.

بعـــد أربعين، خـــمس وأربعين سنة يكتب للأهرام مصطفى السمّان مقيم ٣٠ شارع السبع، امبابة، عن تلك السيدة التي كانت عندئذ، فى مثل ذلك الصباح، فى نحو العـشـرين من عـمـرها. أين كـانت ومن أين أتت؟ من الفلاحين؟ هل كـانت - ذلك الصـبـاح ، مـثـلا - تحـمل البلاّص على رأسها، فى قرية من قرى امبابة، تأتى بالماء من الموردة فى النيل؟ وتقضى النهار فى رعى الجاموسة التي تأكل الحلفا وأنواع الزرع الشيطانى على شطّ النهر الذى كان مـايزال بريئاً؟ هل كانت من وسط البلد أم من أطرافـهـا؟ هل كـانت فى بيت أبيـهـا أم كـانت تخـدم فى البيوت - عندئذ، سنة ١٩٤٧ مثلاً - وتنزل نشيطة ناهضة الصدر خفيفة الخطو فى جلابيتها البلدى لتأتى لهم بملء الطبق الصاج الكبير، بتعريفة فول مدمس؟ أم كـانت تبيع الفـجل والجـرجـيـر الحـزمـة بملّيمين على قـفص الجـريد المغطى بخيشة مبلولة؟

«فى بداية شارع ترعة السواحل من ناحية المحكمة بامـبـابة كـيت كـات أجـد كل يوم سـيِّدة فى السـتين من

عمرها تجلس فى مفترق الطريق العمومى وتحت عمود الكهرباء، في الرصيف الصغير الذى يفصل اليمين عن الشمال» (شُفْ دِقّة مصطفى محمد السمَّان وحفاوته بالتفاصيل!).

«وتفترش بقايا حصيرة وبجوارها بقايا بطانية وصحن وقلّة وتجلس طوال النهار وفى الليل تنام وتتغطّى بالبطانية ورغم أننى تأثرت وأنا أراها تحت المطر إلا أننى جلست أتعجب..»

(أين، ياترى، جلس مصطفى محمد السمان يتعجب، على الرصيف الذى يفصل.. إلخ).

«عندما رأيت كلباً يجلس بجوارها يحرسها من أقدام المشاة ومن الأولاد، وعندما سألت عنها قال لى أحد البائعين إن هذه السيدة فى هذا المكان منذ سنوات عديدة تنام وتستيقظ فى الشارع ومعها هذا الكلب..» ٢أبريل ١٩٨٧.

تنام وتستيقظ فى الشارع..

أما فى ٣٠ يونيو من العام ١٩٨٧ نفسه فقد كتب منير

المسـيرى، للأخـبـار، من مـدينتى العظمى الاسكندرية القدسيّة الحوشيّة المهدرة والأبديّة أنه قد:

«كـشف بلاغ مـنِ أبٍ بالاسكندرية عن جـرائم بشـعـة ارتكبها طبيب بمستشفى الشاطبى باسم البحث العلمى! كشف الأب اختفاء جثّة ابنه الوليد بالمستشفى.. وماطله المسؤولون بالمستـشفى فى تسليمـها له.. وبعد أسبـوع تسلَّم الجثة بدون رأس!!

«تقدم الأب ببلاغ إلى العميد محمد مكاوى مأمور قسم باب شرقى.

«كشفت التحريات أن طبيباً بالمستشفى يعمل مدرساً مساعداً بقسم البيولوجى بكلية طبّ أسنان الاسكندرية قام بقطع رأس الوليد لإجراء أبحاث علمّية عليها.. اعترف الطبيب فى التحقيقات أنه اعتاد قطع رؤوس الأطفال المتوفين الذين لا أهل لهم لإجراء الأبحاث عليها.. وأن المسؤلين بالمستشفى يلقون بجثث الأطفال فى حمام المستشفى حيث يقوم هناك بقطع رؤسهم. وقال إن جثّة هذا الرضيع أُلقيت خطأ مع هؤلاء الأطفال!!

أُحيل الطبيب إلى النيابة.

وماله؟

البحث العلمى طبعاً لا يعني كثيراً باعتبارات أخلاقية أو اصطلاحات اجتماعية من نوع قديم الطراز.

وهل جاءت - يعنى - على هذا الرضيع؟

فماذا نقول عن الكبار الذين تقطع رؤوسهم - وأى من أعضائهم أيضاً - فى كل مكان، ثم يلقون، هكذا، فى المقابر الجماعية أو الفردية التي لا شاهد عليها ولا اسم لها؟

فى كل مكان.. وعلى طول الزمن.

باسم البحث العلمى أو باسم أى شىء.

وماله..

ما أجمل أن اليقظة لن تأتى، يوماً.

سوف تحرمنى الظلمة من جمال الظلمة.

تيقظت من نومى - هل تيقظت قط؟ هل أتيقّظ أبداً - فى قطار السكّة الحديد المألوف الذى لم أنزل منه حتى الآن، بعد قلق النومة على خشب مقعد الترسو الناشف

المهتز، وجدت أن القطار يمشى ببطء فى ساحة المحطّة التى لا آخر لها، القضبان المتشابكة المتشعبة هى هى لم تتغير، تتوازى وتتلاقى وتنشق وتنعرج وتستقيم ولا تتشابك ولا تصل إلى غاية، ووجدت أننى لا أعرف أين مقعدى الذى قضيت ليل العمر الطويل عليه، جعلت أقطع القطار، أذهب وأجئ، أبحث عن مكانى، أجد الكراسى مائلة ومخلوعة ولها ظهور نصف مقصومة وناتئة العظام الخشبية وقد طلع الحشو البلاستيك منها في نتف اسفنجية الشكل وقذرة. ألقى الكمسارى فيقول لى بانكسار: «العربة نمرة ستة، أنت طلعت العربة أربعة. ليس هنا. ليس هنا».

وكأن عربات القطار تتكرر وتتزايد وتتمدد أمامى، وتختلط أرقامها علىَّ، أسأل الركاب، نصف نائمين، لا يجيبنى أحد.

تنظر إلىَّ المرأة الهائلة الأعضاء فى ملايتها اللف التى تسقط عن كتف مدملجة مدوَّرة – كما تسقط دائماً هذه الملاية اللّف – ليظهر تحتها قميص نوم ساتان عريض الحمّالات، مبهم اللون غير نظيف تماماً، نظرة خاوية إلا

من ملء الجسد الركين، لا تجيب بل كأنما هي التى تسأل، بعينين فيهما غياب.

يشيح عنّى العجوز، فى جلابيته البلدى والبالطو الخفيف القديم المصفرّ اللون، هل هو بقال؟، بوجهه المقدّد حاد العظام وفمه المزموم كأنه لا يريد أن يرانى أصلا، مع أنه يعرف أننى أقف أمامه، أسأل أين أنا، أين أنا؟ كأنه يريد أن ينفينى. يا عمّ، هَوّ أنا ناقص منافى؟

القطار يهتز، أحس أنه يسير، لكنه لا يقطع شوطاً أى شوط كأنه يراوح فى دق عجلاته الحديدية التى تكشط جدران نفسى.

وأظل أمرّ عبر اختناقة الصبح التي لا تنجاب، عبر الوصلات الحديد المرتجّة بين العربات، من باب حديدى مفتوح إلى باب، يلفحنى هواء فجر بارد ومُغيم.

هل أنا فى محطة مصر، فى اسكندرية، مسافر إلى أخميم، فى محطّة كوم حمادة، قادم من الطرانة، فى أيتاى البارود؟

لا أجد، ولا أعرف، أبداً أين أنا؟

أين أنتم؟

النزوة الحادية عشرة

سوق المسلّة

«أمر على الديار، ديار ليلى..»

فهل تنكرنى الديار أم يستخفى بىْ عرفانها؟

سماؤها بلون الكوبالت الأزرق العميق فى الغسق.

لماذا يسحرنى لون الغسق؟

أنذير الغياب والفقدان؟

أم نعومة التسليم لضياع الجسد الوشيك؟

أسمع سعف النخيل السلطانى على جانبى محطة الرمل القديمة، يهفهف. مازالت تخايلنى حتى الآن، هذه المحطة القديمة، وكشك ناظر المحطة الخشبى المسقوف بالقرميد الأحمر الداكن، فيه دفء كفاءة مفقودة، احترام الدقة التي ولّى زمانها.

أجلس فى «كازابلانكا» فى الدور الثانى، وراء النافذة الزجاجية العريضة. الغيم فى سماء الصبح البدرى ينزلق فوق البحر البعيد. أأنتظر بقلب واجف أن تعبر ليلاى،

نعمتى، بهذه الديار؟

ليلاى صغيرة الجسد، موسيقية الخطو، مرهفة الخصر حتى تكاد تطوّقها أصابع يدىّ، فستانها الأصفر الفاتح فريد في لونه ونسيجه وفى أناقة انسيابه على القد الرشيق البضّ معاً، ينوس على الساقين بسمانتيهما الممتلئتين، كاملتين فى دقّة سحبتهما، كاملتين فى دوران خرطتهما، إيقاع مشيتها عندئذ يتردد الآن فى ساحة روحى التي أظنها قاحلة خاوية حيناً، وأراها حيناً مزدحمة مثقلة بكراكيب الذكريات وأنقاض السنين.

أمازلت أنتظر عبورها؟

وهى المقيمة.

لست واثقاً أننى سوف أرى الآن من تعزّ رؤيتهم، بل تستحيل.

بل أعرف أن ذلك لن يحدث.

أهذه شذرات ممزّقة أسمع جفيفها من الداخل ولا أرى لها أثراً؟

مادلين، ميريام، بشعرهما المنسدل الطويل، متطابقتين

تقريباً فى مشيتهما شبه الآلية التي تثير الجسم. ستيفو ذات الثديين الهائلين التى كان يحبّها فريد اسكاروس وظلّ يذكرها فى المعتقل وهو يمصّ سيجارته الأبدية بين شفتيه الطويلتين الشهوانيتين. نيتسا تاڤانيوتيس ملفوفة فى ثيابها المحبوكة دوماً، أنيقة الأوصال ولدنة ولها مهابة الطول المشوق والجدّيّة الخالصة والأنوثة الموضوعة تحت تحكّم عقل دقيق الحسابات. ثم أرتميس – آه من الإلهة الصيد الجامحة الفاتنة – تُوقع بفحول الرجال، هكذا فى خطوها، دون اهتمام، دون أن تلقى بالاً.

إيماءات الروح المبدَّدة، تسقط أمامها أطلال البوابات الحجرية التى لم توصد قطّ، لكنها لم تكن قد فتحت قطّ.

أهذه ديار مازلت أرتادها، أم لم أعرفها قطّ، ولم تكن؟

وهل خطت رجلاى حقاً على هذه الساحات المظلّلة بوارف الأشواق، أم هى مواقع أضمرها بعد أن حدَّدتها الأطياف الأولى، لن تبين، لعلها لم تقم، لكنها تعود، لا تتوقف عن مراودتى ومراوغتى.

أهذه ديار تنفينى، لأنها هى منتفية؟ أم تتغافل عنى،

عمداً، تستفزني؟

زاد قديم محفوظ مع ذلك لا تبلى بكارته، يتقطَّر، يغذو النفس العطشى التي مهما رويت تظلّ صادية.

أيامها، بعد اندلاع الحرب بقليل، وبدء الغارات، كنت أعرف جان جاك روسو، كتبت عن جنّيات وحوريات شيكسبير في «العاصفة» وقرأت عن داروين وجوليان هكسلي، وتغنَّيت بأشعار كيتس وشيلي، وعرفت المعلَّقات والكامل والعمدة والحماسة، ودرست مستنسخات عن لوحات پنتوريشيو ورافاييل وروبنز. ولكنني لم أكن أعرف سوق المسلّة.

قالت لي أمي: تأخذ الترام رقم ٦ من عندنا أمام البيت، يمرّ من راغب باشا حتى شارع الخديو توفيق، ثم النبي دانيال، ويحوّد في السلطان حسين حتى يدخل على الشارع الذي نرى البحر في آخره، شارع المسلّة، وتنزل في المحطة التي قبل محطة الرمل.

لكني تهت – أو سرحت، لا أعرف – وفضلت في الترام حتى شارع سعيد، ونزلت، وسألت، ورجعت،

وعرفت أن شارع المسلّة اسمه الآن شارع صفيّة زغلول، وتذكّرت وجه أم المصريين كما كنت أعرف صورته من المجلات القديمة، الوجه المكتهل الصبوح وديع الأرستقراطية، دمث ومترفع ورؤوم.

قالت لى: أمى: قل له صاحب البيت عايز اتنين جنيه ونصّ ريال، أجرة ثلاثة أشهر مكسورة، ضرورى تجيب معاك الفلوس، أحسن معاه حكم بالحجز. يادى الجُرسة، يادى الهَتِيكة!..

كنّا نسكن فى شقة أرضية فى ٦١ شارع الشيخ خفاجى، راغب باشا، وهى التى أحرقت فيها ثمار صباى تلمُّساً لاحتراق طفولتى وأوجاع مراهقتى. كنت أرى صاحب البيت الأرمنى ابن البلد ميشيل دفيسيان الذى يأتى أوّل كل شهر، بالبدلة الكاملة المقيّحة والبرنيطة الرخوة القديمة ولهجته اسكندرانية قحّة لا تفرق عنا ووجهه أسمر طويل – أصله جاء من طنطا – لكنه هذا الصباح كان مكفهراً ضارب البوز.

كنت يومها فى إجازة الصيف،. ترجمت جزءاً من

رواية «السهم الأسود»، كنت يومها أحلم على صورة زوزو حمدى الحكيم فى مجلة «الاثنين» القديمة العدد ٢١١ صيف ١٩٣٧ التي حكى فيها مطرب الملوك والأمراء كيف لحَّن «لما أنت ناوى تغيب على طول»، وكيف كان المرحوم حسن بك أنور وكيل معهد الموسيقى الملكى يقيم مآدب الفسيخ، والقهوة المعمولة بالسمن البلدى، والتى قالت فيها زوزو شكيب إنَّ الضرورة لعبت دورها: «وساقتنى إلى نهج الطريق الذى كانت تتوق إليه نفسى»، هكذا، «نهج الطريق» «تتوق نفسى» بتلك الفصاحة التى أضافها المحرر الفنى على كلامها. وكانت زوزو حمدى الحكيم ترتدى ثوباً سابغاً لَّيعاً يحبك الجسم المشوق بتفاصيله المغوية الثديان الناهدان والخصر الهضيم المسفوط والبطن المكوَّر بأهون تدوير والساقان الملفوفتان. وكان وجهها أسمر التقاطيع صابحاً وغضاً وحيًّا ومصرى الإيحاء. وشعرها الغزير واضح التجعيد وإن كان ملتصقاً برأسها، وذراع واحدة مرفوعة عارية وبضّة وأمَّا الذراع الأخرى فيغطيها جناح الفستان المنسدل على

الكتف بانسياب.

وفى ظهر الصفحة المطبوعة - كلها - بالروتوغرافور المضبوط على لون السيبيا الرمادى، كنت قد سرحت مع الراقصة سعاد فهمى بفرقة ببا بكازينو مونت كارلو فى الشاطبى. وكان الأستاذ محمد تيمور بك مقرّراً أن يغادر مصر إلى أوروبا يوم أول يوليو وأن يسلّم قصة السيناريو. بينما «أبحر إلى بيروت يوم الأحد الماضى مطرب الملوك الأستاذ محمد عبد الوهاب ليتسلم بنفسه نيشان الاستحقاق الذى تفضل فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية بالإنعام به عليه، وسيعود بمشيئة الله فى يوم الثلاثاء كى يرتب أعماله فى مصر قبل أن يبحر إلى أوربا في منتصف شهر يوليو المقبل».

لماذا أحتفظ حتى الآن بهذه الأوراق التي اصفرّت الآن ورقّت، فيها هفّات النزوات والأحلام القديمة التي لم تندثر قط، هبّات شهوات الصبا الأول وغياباته، خيالات جسدانية دائماً؟

من شارع صفية زغلول دخلت من ممر جانبى صغير

جنب آخر محطة قبل محطة الرمل، إلى سوق المسلّة.

بدهتنى روائح السوق النفاذة الفاحشة: اللحم الأحمر المشبوح مصقول الجنوب وطرىّ والأضلاع المكسورة بالساطور بيضاء حادّة البياض، زبل الطيور الطازج والقديم، نفح الفراخ المتميز الحرّيف، وكانت الديوك الرومى تقوقئ فجأة بصوت ثاقب مرتفع، سيقانها مربوطة بالأقفاص المستطيلة المصنوعة من جريد النخل الرفيع بقضبانها المتوازية المتقاطعة، بينما ترتفع أعناقها السوداء باللغد الأحمر المترجرج والرؤوس مستدقة المناقير بشكلها البدائى الموحش، صوصوة الفراخ والكتاكيت البلدى وهديل الحمام وانفلات الأرانب فجأة من طرف إلى طرف فى سجن الأقفاص.

السوق يتردد فيه الصدى، ويتجاوب الكلام والصياح لأنه عالى السقف وحيطانه مكسوّة بالقيشانى الأبيض النظيف، وجدت الجزّارين فى داخل أقفاص زجاجية أخرى، تحت اللافتات المكتوبة بخطٍّ ذهبى على أرضيّة المرايا" «تاوضروس وأبناؤه. لحوم خنزير» ورأيت وجه أبى

من وراء الزجاج.

كان جالساً إلى مكتب صغير جداً تكدَّست عليه دفاتر الحسابات الضخمة بورقها السميك الذى يبدو، حينما يغلق الدفتر، مقعراً إلى الداخل بتقويس منتظم ولونه أزرق خفيف فيه خطّان رفيعان جداً بالأحمر.

كان طربوشه مايزال مكويّا حاد الكيّة، وجهه الناحل بعظم خدّيه الناتئين. ابتسم لى، بابتسامته العذبة. وكان مندًّى بعرق خفيف ولكنه كان يلبس ملابسه الكاملة: القفطان الحرير السكروتة والبالطو الجبردين. أسند عصاه الأبنوس، ذات المقبض العاجى الذى على شكل رأس صقر، إلى المكتب الصغير، وكان يراجع، ويحسب، رصَّة من الأوراق والفواتير وبوالص الشحن وإيصالات بضاعة السكّة الحديد وحسابات تجار الجملة.

قال لى: ربنا يسهل ويعدّلها. الليلة إن شاء الله ع العشا تكون فُرجت بإذن يسوع، ونجيب الأجرة.

ولفّ لى حتّة كبدة لدنة فى ورقة لحمة: قول لستّى وستّ الكلّ تشوّحها وتوضّبها مرّة ع العشا.

كان أيامها يقضى النهار بعد النهار يلفّ فى السوق، من غير شغل، فإذا جاءه الرزق من ربّنا اشتغل، باليومية، بحسابات أولئك الجزارين أو تجار الطيور والسمن والحبوب والبيض. بل كان أحياناً يعمل بالساعة، أو بالشغلة المحددة، ليرجع لنا باللقمة، والمصروف. وكان دائماً راضياً ودمثاً، وبشكل أو بآخر يدبّر لنفسه كأس الكونياك أو العرق، والمزّة، يشرب مع أمّى، ويعزم علىّ وعلى أخواتى، أمّا أجرة البيت...

كم تحمّلنا يا أبى - أنت، وأنا فيما بعد - من أجل لقمة العيش، بشرف، حتى يعيش من نحب، فقط يعيشون، ولكن بكرامة.

وكم أنكرت نفسى - فيما بعد - بوهم هذا الشرف وتلك الكرامة التى يظلّ يمتهنها الخنازير.

هذا الوهم الذى لا ثمن له فى السوق وربما لا محل له فى هذا العالم.

بعد أن صلِب المسيح، وطُعِن، ورُوى بالخلّ، وأُلبس تاج الشوك وسخر منه العساكر الرومان وسفلة المتعصّبين -

وغفر لهم – مَنْ تلك التي تلقَّتـه بعد أن أنزل من على خشبة التعذيب؟

المجدليّة؟

أم مريم الأخرى؟

مَنْ تلك التي تمسح ساقىّ المُجتهدتين بشعرها العطر الغزير؟

«الليل مملكة البوم والفئران والنساء».

ضحكات الصبيّين الوحشية تقريباً، فى فناء محطّة مصر الواسع الفارغ الموحش تتردد لها أصداء إذ ترتطم بالسقف الزجاجى العالى والحيطان النظيفة، الساعة الرابعة وقطار سيدى جابر يدخل على القضبان اللامعة، صفيره يدوى بمهابة، وترحب به صدورنا، ونصعد، ومعنا بنات مدرسة نبويّة موسى الراجعات إلى الرمل، والطلبة يتبعونهن بأعين لامعة مكتومة الحيوية، وهمسات المعاكسة الخافتة المؤدَّبة الخبيّة تقريباً.

قال لى شفيق: وَلَهْ.. أنا عايز من ده!

كانت البنت سمراء غضّة ملفوفة وخجولاً، تضم

الكراريس والكتب إلى نبتة الثديين البرعميّين بحركة بنات المدارس المأثورة المشهورة، ولكن نظرة عينيها الغائرتين فيهما غواية أنثوية مبكرة تطعن الأجسام المتفتحة على عرامة اليقظة الذكورية البكر.

كنا قد أخذنا كأسين من الدندرمة المشكَّلة بالفسدق والشيكولاتة والمستكة - الواحد بستة مليم - من صندوق الجيلاتى فى ساحة فسيحة خالية فى شارع صفية زغلول، على الرصيف المقابل لسينما ريالتو. يشغله فتى اجريجى طموح استطاع بعد ذلك أن يستأجر هذه الساحة وأن يقيم عليها «إيليت» ذائع الصيت.

كم دفعتني الوحشة - بعد ذلك بسنين، وربما حتى الآن؟ - إلى المقاهى بحثاً عن لحظات رفقة وأنس بالصحاب، إلى الفريسكاذور وإيليت وقهوة فرنسا، ولورانتوس والكريستال والتجارية وكازبلانكا وياستروديس، وحتى «قهوة الأشباح» التي كانت - على ضيقها ووعورتها - ساحة مباريات الطاولة أو الكوتشينة بكل حموتها وصخبها وضجيج تحدياتها ووهج

انتصاراتها وحبوط هزائمها بين رضوان القفاص وأحمد قنديل، بين فتوح القفاص وجمال حشمت الشاعر الرقيق الذى عاش وعلّم سنين طوالاً فى الكويت والعراق والذى وصمنى بعد ذلك بالفجاجة والسماجة وثقل الدم والذى كان يقول عندئذ: «ما خلاص ، بعد سنين تحط إيدك لا مؤاخذة على جسم مراتك كأنك بتحط إيدك على جسمك، ما تفرقش، ولا تحسّ حاجة!» أو بينهم أو أيّهم وأىّ من البوابين والبياعين فى «أوريكو» الشاهقة التى تكبس على حارة القهوة وتسودها. وأمّا أنا فكنت – ومازلت – لا أعرف أيّة لعبة، ما عدا لعبة الكلمات والمعانى التى ما أشدّ جدّيتها، وكنت أموت، معهم، مللا وضيقاً بنفسى، وأكتم حسىّ، كعادتى.

وعلى أى حال، فما العلاقة؟

ما العلاقة بين أى شىء وآخر، مهما بدا من توثّق الروابط وإحكام الوشائج؟ ومهما كانت هذه الروابط قائمة وهيكلية؟ ما العلاقة؟

ألا تكفّ عن فلسفة الصفيح هذه؟

أم أنه – فى النهاية – ليست كذلك تجرى الأمور؟

كان شفيق راقم بسطوروس، ابنَ ناظر محطّة السكة الحديد فى صفط الملوك الذى يملك قيراطين أو فدانين يعنى، الله أعلم، والذى كنت أحبه كثيراً، يأخذ معى كأس الدندرمة من الصندوق الأحمر اللامع نظافة وأناقة، على الرصيف الآخر أمام سينما ريالتو، وبينما هو يمص العجينة الدسمة الملوّنة المثلوجة، يعبر تقاطع السلطان حسين، ويدخل على شارع المسلّة – صفية زغلول، ويمرّ على فَرشة بائع الصحف شبه العميل شبه الصديق، وكان الرجل الكهل الداكن اللون وسيم الملامح بشاربه الأبيض المنمّق، يحتفظ له – من تحت لتحت – بمجلات الصور العارية اللامعة، باردة الملمس، وكتب من نوع «بئر الوحدة» و«اعترافات مومس» و«مذكرات إيفا» مطبوعة على ورق أصفر خشن بالعربية – مليئة بالأخطاء المطبعية، وهو غير مهم! وبالإنجليزية مخصوص للعساكر الإنجليز والأسترال والأفريكاندرز. كان يحوم حول الفَرشة عندئذ، ولد حافى القدمين بجلابية نظيفة، هو

الذى أجده الآن، بعد نصف قرن، صورةً طبق الأصل من أبيه الشيخ الوسيم داكن السمرة بشاربه الأبيض المنمّق وعينيه اللتين تحملان، مثل أبيه، إثم المغامرة داخل المحظور. وكان الرجل صديقاً لجاره حسين أبو الليل، التروتسكىْ القديم الذى كان جزمجيا صنايعياً كامل الإتقان لصنعته بل محبّاً لها حتى العشق، وكان يعمل طول النهار حتى الليل فى الحيّز الضيق المحصور بين حارة توازى شارع صفية زغلول من وراء خلفية محل الأحذية الراقى الذى تقع واجهته الأنيقة على الشارع الكبير.

تطابق الصور. تكرار الصور.

ألا أعرف غير الصور، بالروتوغرافور أو بغيره، صور طبق الأصل، صورٌ خير وأبقى من الأصل. ربما. ولكن أين الأصل؟

الآن والهواء الرطب يضرب وجهى برفق عبر نافذة «إيليت» المفتوحة على نصف قرن من الزمان تمرّ بى تلك المرأة النارية، جيبتها البنطلون الواسعة حمراء تحرك

ردفيها، بقوة، ثم تنزل، فضفاضة، مزهوة متفجرة بلهيبها الحيواني النباتى معاً شعرها أحمر مهوّش مرفوع ومشتعل، كأشجار البانسيانا المتأجّجة هُنيهةً، أياماً ربما، ثم تنطفئ.

كانت الثورة قد قامت منذ سنتين، وكنت مع أوديت ولقيت حامد عبد الله مع أحمد، جالسين على الرصيف الواسع المزدحم بالناس والبهجة واللغط الأنيس واسترخاء مساء الصيف، كان ايليت عندئذ مفتوحاً على شارع صفية زغلول. وعزم علينا بإصرار. وأخذنا الجيلاتى المستكة الشهير وقال إنهم هتفوا بسقوط الديمقراطية وسقوط الحرية وقال إن هذه البلد ستمر بمحنة صعبة وطويلة، قلت نعم طريق السعى إلى العدل الاجتماعى وطرد الاستعمار طريق وعر ولكن عندك الحق، وسكت أحمد، بحكمة، كعادته، وكانت أوديت فى التايير الكحلى الأنيق، رشيقة وجافة القدّ تقريباً، عيناها العسليتان فيهما معرفة مسبقة وتكذيب ولمحة مَكر وخوف وترقّب معاً. صدق حدسها فيما بعد.

وكأن الزمن لم يمر على الإطلاق.

أمرّ على الديار.

هذا الشـوق ذاته، هذا الاضطراب الداخلى، وطيش المغامرة من غير حساب للعواقب، وهذه اللهفة ذاتها.

قبل هذا الرصيف الواسع كنت أمرّ على كشك عبد المنعم الذى كان يشتغل معى فى الشركة، وعرفتنى به نعمة، وكان يبيع الصحف والمجلات والكتب العربية والفرنسية بعد الظهر. وكان شكله يشبه الديوك الروميّة – وهو يطلّ بعنقه الطويل من نافذة الكشك، ومنقارٌ فى وجهه الشاحب ذى اللغد، وعيناه جاحظتان وحتي صوته يقوقئ أحيانا عند الانفعال أو الاستغراق فى البيان والحساب وكنت أشترى منه «المجلة الفرنسية الجديدة» العدد الواحد باثنين وثلاثين قرشاً وروايات فرنسية نصف عمر أوريليا لجيرار دى نيرفال وحكاية مانون ليسكو والشيفاليه دى جريّيه للأب بريفو، والجولات الأدبية لريمى دى جورمون، المطبوعة فى ١٠ يونيو ١٩٠٦ وكنت أدفع حسابى بالتقسيط كل شهر عشرين قرشاً عند قبض

مـرتبى وكـان عـبـد المنعم يقف على باب الخـزينة – من الخارج – يرصد العملاء ويستوفى الأقساط، وقرأت في المجلة الفرنسية الجديدة أحاديث لچورچ پراك وأشعاراً لرينيـه شـار وشـذرات لأنطونين آرتو وقـصـصـاً ليـوچين يونيـسكو ومـذكـرات غـيـر منشـورة لمارسـيل پروست واستشهاد الحلاج فى بغداد بقلم لوى ماسينيون، ولكتّاب وشعراء كثيرين جرف أسماءهم بحر التاريخ الملتطم.

أمَّا رفيق الأيام الذى صَاغ منِّى جزءاً لا يضيع أيًّا كانت صروف الأيام فقد اعتنقت نجواه: «أيها البحر اللانهائى الذى أحالت دموع البشر مياهه العميقة إلى أمواج من مرارة لاذعة. الفيض اللامحدود الذى تصطخب فى جزره ومدِّه أمواج الموت، أمازلت جامحاً جائعاً إلي المزيد وقد لفظت الحطام الباقية عن عواطفك إلى ساحل الموت المقفر الماحل؟»

تطعننى – على عكس ما تريد – امـرأة نضـرة، مخروطة الساقين فى الشراب الأسود الشفاف والحذاء ذى الكعب العالى الرقيق، وهى تقول مرحِّبة بى:

- ماذا يمكنني أن أفعل لكي أجلب لك السرور؟

أبتسم شاكراً وعارفاً أنه سوف يعزّ عليَّ السرور.

وسوف أتنكّر لها.

وإذ يخرج الناس من سينما رويال إلى شارع فؤاد وشارع الكنيسة اليونانية وشارع المسلة متقاربين متماسكين في نعومة الليل الرقيق المندّى كأنما يخشون شيئاً من عمقه المخوف، يتهامسون، لا يرفعون صوتهم كأنما يدارون بالهمس روعاً يسقط عليهم من بين أسطح البيوت ومن أبراج الكنيسة ومن سقف السوق المخروطي ومن حواف السماء، يضحكون بخفوت ويتلمس الرجال والنساء من دفء أجسامهم عزاءً وقرباً ورفقة في مواجهة هذا الليل الصمُوت، عندئذ كنت يا نجمتي يا نعمتي أفتقدك حتى لا تفدحني جفوة تلك السماء وغربة تلك النجوم يضربني هواء الليل القادم من الميناء الشرقية ومن موقف ترام البلد، محطة الرمل خالية إلا من حفيف النخل السلطاني على الجانبين والليل ينالني في النهاية، ينال مني أغواراً مفتوحة كجروح، أمام صخر النجوم وقِفار

السماء.

وليس هناك إلا طريق اللبانة وشارع الشعرى اليمانية وسوق المسلّة، أذرعها قد أصبحت شاراتٍ ممزقة تسبح فى الزرقة الصامتة.

النزوة الرابعة عشر

ستّة خيول

كنت أسافر أحياناً من القاهرة للاسكندرية بالطائرة.

كانت أشواقى إليها لا تحتمل السفر بالديزل المجرى الجديد، مهما بدا من سرعته وكفاءته.

ومن مطار النزهة القديم كنت أهاتفها ونحدد ميعاد اللقاء، عادة بعد ساعة، عادة فى «غزالة».

وكانت «غزالة» جنب سينما استراند، أنيقة وهادئة وبها أرائك وثيرة ومريحة تدور حول جدرانها التى تسبح فى ضوء غير مباشر آتٍ من كرانيش علوّية فى الحيطان مرهفة البناء. وكنا نقول إننا سوف نصنع فى بيتنا هذا الضوء الشاعرى، وتلك الكرانيش، ولم نصنعه قطّ، وأما ضوء الشِعر الداخلى - مرهفاً أو عاصفاً - فقد غمر بيتنا.

كانت هناك أيضاً موسيقى غير فجّة تنبعث من سمّاعات مدوّرة قد تبدو الآن - وعندئذ - كما لو كانت

مـأخـوذة من إحــدى قـصص مـحـمـود كـامل المحـامى الرومـانسـية جـداً من الثـلاثينات. لكن «غـزالة» بالطبع لم تكن مجرد اكليشيه.

قلت مرّة أخرى وأخرى، بلا انتهاء:

– مهما كانت الكلمات، قادرة أو قاصرة على السواء، فما أبعدها عن الخبرة الحيّة وما أكثر ما تحمل الكلمات من إيحاءات ودلالات وأعباء عاطفية وتاريخية وفكرية لا وجود لها حقاً فى تلك الخبرة المعاشة مباشرة دون وسيط.

دعنا الآن من النظر – ولو خطفـاً – إلى مـا وراء الكتابة.

كنت عندمـا أصل بالتاكسى إلى بيتنا فى شـارع الباشا فى كليوباترا الحمّامات، أغيّر البدلة، وأُعنى بربط الكرافتة – أيامها وفى الشتاء خاصة كنت أُعنى بارتداء الكرافتة: مُحبٌ محمول على أجنحة أيام الخطوبة.

أجنحة الطائر الصبور الرؤوم لم تسقطنى قطّ.

أنتظر وصولها فى محطة الرمل التي يحف بها النخل

السلطانى العالى من الجانبين، أترقّب وصولها على خطّ باكوس أو سيدى جابر الجامع، ونزولها من الترام الأزرق الذى يأتى، كفئاً، وفيّاً، شديد النظافة، ودقيق المواعيد.

يثب قلبى - كل مرّة، كل مرّة يا ربى! - عندما ألمح قامتها الرشيقة الدقيقة. الوجه المضئ الممتلئ قليلاً والمشرق بابتسامة صافية تكاد تكون طفليّة العذوبة، والخصر الرقيق الرفيع الذى تكاد أصابع يدىّ المدوّرتين تطوّقانه من فرط رهافته وتهضّمه.

قالت لى إن السرتيت الذى يحيط برأسها يمكن أن يدور حول وسطها.

نصعد السلالم القليلة إلى «غزالة»، وتتماس أيدينا - كأنما برغمنا، كأنما بقوة لا نُسائلها ولا غلاب لها- ونحن نغوص على قطيفة الأريكة البنّيّة ناعمة الوبرة. وعيوننا متشابكة، ليس بمقدورها أن تنفصل، بنظرة عميقة كأنما تذهب بعيداً إلى أغوار ليست مسبورة فى الروح.

كنا - حتى فى الشتاء - نبدأ بأن نطلب «تروا پيتى كوشون» (يعنى ثلاثة خنازير صغيرة) ويأتى الجيلاتى

المشكّل ثلاث قطع مستديرة متجاورة: شيكولاتة وكريمة وفسدق، فى كأس فضيّة مصقولة لها ساق مشغولة منمنمة.

وبعد المتعة بها - وبأحدنا الآخر - وبالحديث عن مستقبل غامض المعالم يشعّ بالشغف والتمنى،

نُثنى - دائماً، حتى فى الصيف- بكأس من الكونياك، أُوتار أو كورڤازييه - يصعد بالدم والأحلام والانتشاء إلى الرأس.

ثم نذهب بعد ذلك فى العادة إلى سينما أمير أو مترو أو رويال، القاعة فى كل الحالات فخمة تلك الفخامة المبتذلة المنمطة -تبدو وثيرة وباذخة وفريدة مقارنة بما يحدث الآن - الأضواء الناعمة المحكومة، الموسيقى المعنىّ باختيارها، اللغط البهيج الأنيس من متفرجين متشوقين - دون لهفة ودون لهوجة - لمتعة الفرجة، وقد أخذوا زخرفهم وازّينوا، لبسوا الآنق الذى على الحبل، نفث العطور الخافت غير الجارح يهبّ مع ضحكات خافتة قصيرة، حتى تطفأ الأنوار.

تمتد يدى لتمسك بيدها الناعمة المطواع، أضعها على حجرى، يمتّعنى الآن مجرد مسّها واستجابتها.

قد تكون «غزالة» قد ذهبت، وكل ذلك، لكنها كلها الآن حيّة قوية الحضور.

مازلنا نستطعم لذاذة الجيلاتى - والأحلام، تصوّر! - والكونياك، ومازلت أشعر بملمس اليدين الناعمتين الصغيرتين عصفورتين مرتجفتين مستكنتين فى يدىّ، أو متكشّفتين على استحياء وتورُّع ومغامرة معاً.

عندئذ تتبرّر ليالى الشتاء التى كم ضربت فيها على طريق البحر، أمشى على حافة الأبد، بين أنوار المدينة المتراجعة، ولُمَع الزَبَد المتطاير فى الزرقة الداكنة.

عندئذ يصبح معنى لضربات الموج التى تثب من فوق سور الكورنيش، تطس أحجار الطريق البيضاء، وتبلل الوجه المكبوح، تبلل الوجد المكبوح.

عندئذ تجد الأشواق موضوعها الذى لا تنى تجده وتفقده وتجده، باستمرار.

والجرح، بشكل مستحيل، كأنه يصبح بدء ابتسامة.

تتبدَّد أكوام السماء الغائمة. الظلال الراحلة تتشتَّت بطعنة الفرح. رياح الاقتضاء تحمل صدى المدينة والضحك. وقدة الشمس البهيجة تسطع بين جنبىّ، عطر العود القمارى، تسقط أسوار المدينة صخور السماء.

الصحراء التي لا تنتهى ليست إلا ركناً من امتداد روحى الشاسعة.

أنت مدينتى.

كثيراً ما كان يدخل «غزالة» رجل غريب، يشرب كأساً على منَّصة البار الخالية معظم الوقت، قبل الساعة التاسعة – وينزل يتأوَّد فى مشيته، فى بنطلون محزَّق، خالص – وجاكتة مخنصرة – خالص. يتلفَّت حواليه بحركات دلال تكاد تكون غنجة، ويتكلَّم بصوت فيه غنّة خفيفة وهو يشير بأصابعه الطويلة إشارات كلاسيكية فى رقّتها وإيماءاتها. وكان واضحاً أنه يأتى مباشرة من الكوافير الذى مارس على وجهه فنون الصقل والتنعيم، بالموسى والفتلة ومختلف الكريمات.

وكانت تنظر إليه باستغراب قليل، وأحسست أنها لم

تفهم شيئاً كثيراً حينما حاولت أن أشرح لها، بقدر من التهذيب ضروري، وقدر من الوضوح ضروري أيضاً. ولعلها لم تعرف تفاصيل أكثر عن هذه الأمور إلا بعد سنوات طويلة، من صديقة لها كانت تبدو بمظهر المحنّكة العارفة بالخفايا وهي بريئة وساذجة حتى بعد أن أصبحت جدّة. وجاءت تروي لي بخجل ودهشة حقيقية توشك أن تكون عدم تصديق، وبعبارات علميّة تقريباً مأخوذة من الكتب، كيف يصنع فعل الحبّ هكذا.

وكان هذا الرجل عندما تضيق به الأحوال فيما يبدو ينزل درجة أو درجات في ساحة صيده. وكنت أراه في «كِنْت بار» في شارع النبي دانيال، الحانة الدفيئة المكتظّة التي تخلّفت عن عصرَ العساكر الإنجليز – والملايطة والأسترال والافريكاندر والفرنسيين الأحرار من أصحاب ديجول – ولعلّها عملت خاصة في آخر الثلاثينات – لست أدري – فقد كانت تشغل ساحة رصيف منفرجة داخلة من الشارع بين عمارتين، قبل أن تصل إلى شارع سعد زغلول. أقيمت من جدران من ألواح خشبية محكمة،

متلاصقة، مدهونة بالأخضر الداكن زادت الأيام ومياه الأمطار، الآن، من دكنته، فى مواقع، وتقشّر طلاؤها عن الخام الكابى خشن الصفرة ضارباً إلى الغبرة فى مواقع أخرى.

كنت ألتقى بأصحابى المدرسين عند خروجهم من المرقسيّة الثانوية، فيهم من وصل فيما بعد إلى الدكتوراه والبعثة ورئاسة أقسام الفلسفة أو الإنجليزى ووكالة كليات الآداب، وكانت كأس النبيذ الأحمر - أو الأبيض المثلّج - والمزّة التي هى بمثابة عشاء تقريباً: أطباق فخار صغيرة ولكن عميقة جليلة المحتوى، الكمّونية، والكرشة شرائح دقيقة بالصلصة، والبساريا المقليّة تقرقع فى الفم هشّة وسهلة المكسر، وأمّ الخلول المفتوحة فى صدفتها المستطيلة مستقرة فى مائها المتّبل بالملح والخلّ وبهارات أخرى، وغيرها وغيرها، كلّها بعشرة صاغ للواحد ونصّ فرنك بقشيش يفعل المعجزات بطبيعة الحال، ندسّه فى ودّ - كل على حدة إذا أمكن، أو جماعياً فى الغالب - فى يد فانديلى الجرسون الجريجى اللابس الردنجوت الأسود

والقفاز الأبيض - طهرانى النظافة - وهو متخشّب الظهر، مبتسم لنا ابتسامة بروتوكوليّة ثابتة، يتسلَّل إليها - ربما - دفء لعله مخصوص بنا، وإن كان مدفوع الثمن.

لم أذهب بها قطّ إلى «كنت بار» على أننى حكيت عنه كثيراً، فلعله كان صاخباً ورثّاً قليلاً مهما كانت كرامة خدمته ولذاذة مزّته.

كنت ألتقى فيه بعبد القادر نصر الله صديقى الذى أحبه كثيراً وكان قد عاش فى قَطَر سنوات طويلة ولمَّا عاد هو الذى ذكرنى بـ «كنت بار»، وأخيه عبد الرؤوف أحياناً، وفتوح القفاص، وسليم الأسيوطى ابن الشيخ البروتستنتى وأستاذ الفلسفة المتفرغ الآن، بدقيق الذهن فخوراً برجعيةٍ مبررة عقلياً تبريراً صارماً، وعبد الحميد يسرى، وأحمد صبري الرسام - مات أخيراً هادئاً نائماً فى بيته بالفيوم أسابيع قليلة بعد أن رأيته على أثر انقطاع دامْ سنوات - ووديع كيرلس، وإسماعيل البكرى الذى حكى لى حكاية غريبة تظل عندى - على شكلٍ أو

آخر – مرتبطة بحكاية «كنت بار».

حكى لى صديقى إسماعيل البكرى إنه عندما كان صبياً – وكان أبوه عندئذ حكمدار بوليس السكة الحديد فى المملكة المصرية بحالها– كانوا مسافرين إلى طنطا، مرّة، في موسم السيد البدوى.

فلما دخل الكمسارى الديوان المخصص لسعادة الحكمدار، نهض الرجل المهيب، وأدى التحية العسكرية –بكل دقّتها تقريباً– للكمسارى، وأمر الولد أن يقبّل يد عمه سكله: حِبّ على إيد عمّك سِكْله يا ولد، حِبّ..!

وصدع إسماعيل الصبى بالأمر طبعاً، وإن كان لا يفهم شيئاً كيف يحبّ على يد «عمّه» الكمسارى، وأبوه – الحكمدار – كيف يؤدى له هذه التحيّة؟ لم يجرؤ على السؤال طبعاً، ولكن أباه – بعد أن عاد لمجلسه الوثير فى الديوان الدرجة الأولى المحلّى بصور فوتوغرافية تقليدية، بلون السيبيا، لمعبد الأقصر والأهرامات وأبيدوس والقناطر الخيرية، فى براويز زجاجية معنى بها – حكى لابنه الحكاية.

قال إن عبد المسيح بيه سكله الكبير، عند الاحتفال بتعيمد ابنه البكر فى كنيسة البطريركية القديمة فى كلوت بيه - أجّر قطارات السلطنة المصرية المتجهة إلى القاهرة من كل أنحاء القطر؛ من الساعة الثامنة صباحاً حتى الساعة الثامنة مساء، كلها، حتى يركبها المهنئون القادمون للاحتفال والتبريك والغدا، على حساب البيه.

قال له إن عبد المسيح بيه سِكْلَه كان يلعب بالفلوس لِعْب، وأنه فى الزمن القديم أنقذ عائلة البكرى من ضيقة عابرة، كانت ستنفرج على كل حال ولكنه بادر، دون سؤال من أحد، فأخرج من عبّه كيس القطيفة الأحمر ودون أن يفكّ الدوبارة المبرومة التي تزرّه أو تحزمه، سلّمه إلى جده إسماعيل البكرى الكبير، مثقلاً بالجنيهات الذهب البنتو، أمانة إلى حين ميسرة، دون ورقة، دون حساب. طبعاً ردّ اسماعيل بيه البكرى الكبير هذه الأمانة بأحسن منها، وهبه فدانين من أجود أطيان الغربية، هبة شرعية خالصة من كل شرط.

لكن عبد المسيح بيه سكله خسر كل شيء، فى بورصة القطن.

«الاسكندرية فى ٣ أغسطس ١٩٤٢

«لماذا تأبى أن نلتقى أحراراً كبيرى القلوب فى أفق الفكر الصامت؟

«ولماذا ترى الحقيقة من خلال الغضب الإنسانى الذى أرتجف له؟

«ولمَ تجعل من إيمانك الإنسانى درعاً لقلبك؟

«هناك مسؤولية تحيا وحيداً معها فلا تجعلها تشعرك بانفصالك ووحدتك.

«لأن من تراهم ينبذونك، أنت تحيا لهم، فاجعل من آلامك عيدا لكل إنسان.

وهل يتردد الألم فى آفاق كل نفس ما لم يكن إنسانياً؟

إننى أريد أن أكشف لكم جميعا عن ذلك الجلال الذى يتردد بين العدم واللانهاية.

وأرغب – لو استطعت – أن أجعل من نفسى أرغفة المسيح.

لنرتفع بإيماننا إذن فوق الغضب والشهوة ولنشبع فينا هذا النزوع الإنسانى الحار كالصلاة الذى يدفعنا إلى وضع عدالة بعد الموت يطمئن إليها النزوع الفانى.

إننى أُحدث فيكم فضيلة الحرية التى حدَّثتك عنها.

ومن يدرى؟ لعل الفناء كامن وراء كل عاطفة كليّة، ولعل الفناء هو الذى يدفعنى إلى تلمُّس الجانب الخالد فى كل إنسان.

أجل، كثيراً ما يكون الفناء لنا بصيرة.

أريد – بحبى – كل إنسان أن يكون كالمعبد نشعر أمامه بجلال الصراع بين الحياة وذاتها، وبنوع من الإلزام الخلقى».

«سامى»

أى سامى، ما أقربك إلىّ! هل مازلت تحمل هذه الإرادة، هذه العقيدة، هذا السؤال؟

وهل مازلتُ أحملها؟

فى ظهر يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٤٣ كان صوت جرس الكنيسة المرقسيّة جليل الوقع، بطيئاً فى دقاته الجنائزية

التى يأتى إيقاعها من بعيد، يضرب قلبى.

كانت العربة السوداء تقف أمام الباب فى شارع ابن زهر، عليها تمثال الملائكة المذهبة الصغار مبسوطى الأجنحة، محنية رؤوسها على التابوت المسجى، وأمامها الخيول الستّة، معماة، مغطاة بأوشحة داكنة الزرقة تنتهى بشراشيب ثقيلة، والحوذى قائد النقلة الأخيرة على مقعده العالى، فى البدلة الردنجوت السوداء والقفاز الأبيض محكم النظافة.

وعندما أنزل الرجال التابوت المعمول من خشب الجوز والمصفح بنحاس مذهب، وصعدوا به السلالم الضيقة، ودخلوا به البيت، كانت خالتى حنونة تطلق صواتها الثاقب المدروس فى الشقة كلها، ليست فيه لوعة وإنما خبرة موجعة.

انضمت إليها فى إعلان الحزن فاجع الصوت حلقة النساء السوداوات.

لم أرَ وجه أبى فى موته.

لم أستطع.

سارت العربة، بحركة وئيدة إلى شارع إيزيس وأمامها بساط الرحمة الأسود يمسك به الشمامسة وأراخنة الكنيسة، من الجانبين.

ووراء العربة كانوا يسيرون بتمهل، وكانت سيارات الأجرة، والملاكى القليلة، والحنطور تنساب بنعومة فى زحام وسط البلد، تحمل المعلّمين والتجار وكتبة الحسابات والعملاء الآتين من شارع أنسطاطى وكوم الناضورة والجمرك واللّبان، بالعمائم والطرابيش والبِدَل والجلاليب والبلاطى، المسابح فى الأيدى والمصاحف الصغيرة أو الصلبان الصغيرة، لا فرق، فى طوايا الجيوب، والقلوب.

ومازال الجرس المهيب يوقّع على السماء بدقات متباعدة قليلاً، عُميقة الصدى.

مرّ صبىٌّ صغير، حافى القدمين، جرياً من أمام الجنازة، وبصق.

ذكّرنى صديقى بدوى بأننى قلت له ذلك المشهد، بينما كنت أنا قد نسيته.

غيابه الدمع أم غيامات المرارة أنستنى؟

ودِّع العْرابة ذات الخيول الستة.

كنت أنت وراءها فى السـيـارة، تهـزك الدمـوع، بين خاليك يونان وناثان، وصديق لهما، غريب، ما مكانه هنا؟

لا تستعِد إيقاعها.

ولا تقل إن ذلك ذكرى قد عبرت.

بل استمعْ إلى دقات الجرس الكبير، بطيئة، ضاربة، ماتزال ترنّ فى جنبات سمائك.

ودِّعْ العربة ذات الخيول الستّة.

فقدتها، فقدت من تحمله العربة، فى رحلته الأخيرة:

وما تحمله.

ولا تستطيع أن تنسى الفقدان؟

لأنك – ربما – لن تمضى في عربةٍ ذات خيول ستّة.

الفهرس

للمؤلف

• قصص وروايات

١ـ حيطان عالية : مجموعة قصص – القاهرة : الخراط، ١٩٥٩– ط٢ (كاملة) – بيروت : دار الاداب. ١٩٩٠.. ط٣ (كاملة مع مقدمة ودراسات) الاسكندرية: دار المستقبل ١٩٩٥.

٢– ساعات الكبرياء: مجموعة قصص – بيروت : دار الاداب، ١٩٧٢ .ط٢ ـ بيروت : دار الآداب، ١٩٩٠.. ط٣ ـ القاهرة: مختارات فصول، ١٩٩٤

٣ ـ رامة والتنين: رواية القاهرة : الخراط، ١٩٧٩. (طبعة محدودة) ـ بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠. ط٢ ـ بيـــــــروت : دار الآداب، ١٩٩٢. ط٣.. الاسكندرية : دار المستقبل العربى، ١٩٩٣

٤ ـ اختناقات العشق والصباح: قصص – القاهرة : دار المستقبل العربى، ١٩٨٣.. ط٢ ـ بيروت: دار الآداب، ١٩٩٢.

٥ ـ الزمن الآخر: رواية – القاهرة: دار شهدى، ١٩٨٥. ط٢ ـ بيروت: دار الآداب، ١٩٩٢.

٦ ـ محطة السكة الحديد: رواية – القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، (مختارات فصول)، ١٩٨٥. ط٢ ـ بيروت دار الآداب، ١٩٩٠

٧ ـ ترابها زعفران: نصوص اسكندرانية – القاهرة : دار المستقبل العربى، ١٩٨٦. ط٢ ـ بيروت : دار الآداب، ١٩٩١.

٨ ـ أضلاع الصحراء: رواية – القاهرة : الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٧.

٩ ـ يابنات اسكندرية: رواية – بيروت: دار الآداب، ١٩٩٠. ط٢ ـ القاهرة: دار إلياس العصرية، ١٩٩١.

١٠ ـ مخلوقات الأشواق الطائرة: رواية – بيروت: دار الآداب، ١٩٩٠. ط٢ ـ القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢.. ط٣ ـ القاهرة مركز الحضارة العربية، ١٩٩٥.

١١ ـ أمواج الليالى: متتالية قصصية – القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩١. ط٢ ـ بيروت: دار الآداب، ١٩٩٢.

١٢ ـ حجارة بوبيللو: رواية – القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩٣.
ط٢ ـ بيروت: دار الآداب، ١٩٩٣.

١٣ ـ اختراقات الهوى والتهلكة: نزوات روائية – بيروت : دار الآداب، ١٩٩٣.

١٤ ـ رقرقة الأحلام الملحية: رواية – بيروت: دار الآداب، ١٩٩٤.

١٥ـ أبنية متطايرة: رواية – بيروت: دار الآداب ، ١٩٩٧.

١٦ ـ حريق الأخيلة: رواية – الاسكندرية: دار المستقبل، ١٩٩٤.

١٧ـ اسكندريتي : كولاج قصصي – الاسكندرية: دار المستقبل، ١٩٩٤.

١٨ ـ يقين العطش: رواية – القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩٧.

١٩ ـ تباريح الوقائع والجنون : تنويعات روائية – القاهرة: مركز الحضار العربية، ١٩٩٨

٢٠– صخور السماء : رواية.

• شعر

٢١ ـ تأويلات : سبع قصائد إلى عدلي رزق الله – القاهرة:

المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٦.

٢٢ ـ لماذا؟: مقاطع من قصيدة حب (١٩٥٥ ـ ١٩٩٥) – القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩٦

٢٣ ـ ضربتني أجنحة طائرك (قصائد إلى أحمد مرسى) القاهرة: دار حور، ١٩٩٦.

٢٤ ـ طغيان سطوة الطوايا – القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة (أصوات أدبية) ١٩٩٦.

٢٥ ـ صيحة وحيد القرن (قصائد إلى سامى على)– القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩٨.

٢٦– دانتيللا السماء (تحت الطبع)

• دراسات

٢٧ ـ مختارات من القصة القصيرة فى السبعينات: مع دراسة – القاهرة: مطبوعات القاهرة، ١٩٨٢. (نفد)

٢٨ ـ عدلى رزق الله: مائيات ٨٦: دراسة – القاهرة: عدلى رزق الله، ١٩٨٦.

٢٩ ـ مائيات صغيرة: دراسة – القاهرة: ١٩٨٩.

٣٠ ـ أحمد مرسي: دراسة، مختارات شعرية - القاهرة: ١٩٩٠.

٣١ ـ من الصمت إلى التمرد: دراسات في الأدب العالمي- القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة (كتابات نقدية) ١٩٩٤.

٣٢ ـ الحساسية الجديدة: مقالات في الظاهرة القصصية- بيروت: دار الآداب ١٩٩٣.

٣٣ ـ الكتابة عبر النوعية: دراسة - القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩٤.

٣٤ ـ عصيان الحلم: مختارات ودراسات في الشعر - أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٩٩٥.

٣٥ ـ أنشودة للكثافة: في الفن والثقافة - القاهرة: المستقبل العربي، ١٩٩٥.

٣٦ ـ مهاجمة المستحيل: سيرة ذاتية للكتابة - دمشق: دار المدى، ١٩٩٦.

٣٧ ـ مراودة المستحيل: حوار مع الذات والآخرين- عمان: دار أزمنة،، ١٩٩٧.

٣٨ ـ أحمد مرسى شاعر تشكيلى - القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة (نقوش) ١٩٩٧.

٣٩ ـ ما وراء الواقع: فى الظاهرة اللاواقعية - القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة (كتابات نقدية) ١٩٩٩

٤٠ ـ أصوات الحداثة: اتجاهات حداثية فى القص العربى - بيروت: دار الآداب ١٩٩١

٤١ ـ شعر الحداثة فى مصر - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩ (تحت الطبع).

٤٢ ـ المسرح والأسطورة، أساطير مسرحية - المنيا: دار الأحمدى ١٩٩٩(تحت الطبع).

• **كتب مترجمة:**

٤٣- الخطاب المفقود: مسرحية أ. ل. كارجيالى - القاهرة: ا الدار المصرية للكتاب، ١٩٥٨(نفد)

٤٤- الحرب والسلام : ليو تولستوى - القاهرة : الدار المصرية للكتاب، ١٩٥٨(نفد).

٤٥- الغجرية والفارس : قصص رومانية - القاهرة : الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٥٨(نفد)

٤٦- شهر العسل المر: قصص إيطالية - القاهرة : الهيئة العامة للكتاب، (كتب ثقافية) ١٩٥٩ (نفد). ط٢ : الهيئة العامة لقصور الثقافة (آفاق الترجمة) ١٩٩٩

٤٧- فارالاكو : رواية غينية، إميل سيسيه - القاهرة : الهيئة العامة للكتاب (الألف كتاب) ١٩٦٢ (نفد)

٤٨- انتيجون : مسرحية چان أنوى، بالاشتراك مع ألفريد فرج - القاهرة : الهيئة العامة للكتاب، (الألف كتاب) ١٩٦٣ (نفد)

٤٩- مشروع الحياة : دراسة فرانسيس جانسون - بيروت : دار الآداب، ١٩٦٧، (نفد)

٥٠- ميديا : مسرحية چان أنوى - القاهرة : الهيئة العامة للكتاب، (مجلة المسرح) ١٩٦٨ (نفد)

٥١- الوجه الآخر لأمريكا : دراسة ميكائيل هارنجتون - بيروت : دار الآداب، ١٩٦٨ (نفد)

٥٢- تشريح جثة الاستعمار : دراسة جى دى بوشير - بيروت : دار الآداب، ١٩٦٨(نفد)

العصرية، ١٩٩١

٥٤- نحو التحرر : دراسة هربرت ماركوز - بيروت : دار الآداب، ١٩٧٢ (نفد)

٥٥- حوريات البحر : قصص أمريكية - القاهرة : دار الهلال، ١٩٧٩(نفد) .. ط٢. - القاهرة : دار شرقيات ، ١٩٩٥.

٥٦- الإسلام والاستعمار : دراسة - القاهرة : دار شهدى ، ١٩٨٥.

٥٧- الرؤى والأقنعة : قصص مترجمة - أبو ظبى : المجمع الثقافى، ١٩٩٥

٥٨- السرير المائدة : شعر پول إيلوار - القاهرة : الهيئة العامة لقصور الثقافة (آفاق الترجمة) ١٩٩٧ -

٥٩- ثلاث زنبقات ووردة : قصص مترجمة (تحت الطبع) القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩.

صدر مؤخرا عن (أصوات أدبية)

٢٠٢ – بالأصابع التى كالمشط .... شعر : محمد سليمان

٢٠٣ – كوبّلا ....قصص : يحيى مختار

٢٠٤ – الشرنقة .... قصص : سليمان فياض

٢٠٥ – مدينة اللذة .... رواية : عزت القمحاوى

٢٠٦ – كتاب الأرض والدم .. شعر : محمد عفيفى مطر

٢٠٧ – طراوة العين ....قصص : نبيل نعوم

٢٠٨ – نخب اكتمال القمر ....قصص : ابتهال سالم

٢٠٩ – طلل النار .... قصص : يوسف أبو رية

٢١٠ – الواحد الواحدة .... شعر : حلمى سالم

٢١١ – فوق الحياة قليلا .... رواية : سيد الوكيل

٢١٢– برجالاتك .... قصص : أمين ريان

٢١٣– وقائع استشهاد اسماعيل النوحى: رواية: سمير ندا

٢١٤ – فخلريات ....شعر : اسامة شهاب

٢١٥ – رجف الذاكرة .... قصص : رضا امام

٢١٦ – تفاصيل وتفاصيل أخرى.........شعر : ابراهيم داود

٢١٧ – هى وخادمتها .... قصص : هناء عطية

٢١٨ – كتاب العشق .... شعر : عبد الدايم الشاذلى

٢١٩ – حكايات جار النبى الحلو.. قصص : جار النبى الحلو

٢٢٠ – الحنين .... شعر : عبد العظيم ناجى

٢٢١– نسيم الصبا...................... قصص : زينب صادق

٢٢٢– بندق .... قصص : محمود حنفى

٢٢٣– الغالب والمغلوب............. رواية : مصطفى الأسمر

٢٢٤– مساحات للتعب .... شعر : سمير عبد الباقى

٢٢٥– مشتهيات .... رواية : سهام بدوى

٢٢٦– أشعار .... شعر : ابراهيم رضوان

٢٢٧– القابض على الجمر .... قصص: رفقى بدوى

٢٢٨– حلاوة الروح .... شعر : أمين حداد

٢٢٩– يونى سكس .... قصص : علاء البربرى

٢٣٠– الأرض جحيم الخائفين .... شعر : حسن عقل

٢٣١– حلوانى عزيز الحلو .... رواية : محسن يونس

٢٣٢– فراديس الحوارى .... شعر: ابراهيم خطاب

رقم الإيداع : ٩٩/٨٦٧٩

شركة الأمل للطباعة والنشر



وكان الليل هادئاً وهو يرجع إلى البيت، والنجوم ترمقه من بين سطوح المنازل، والحيطان ترتفع على جانبيه، صامتة فى كبر، والأنوار قد أنطفأت في النوافذ، والأحجار مقفلة على الحيوات التي تنبض وتنعس وتمور خلفها، مسدودة، مصمتة. والتعب يتفتر بجسمه، ولا هدنة هناك، وإنما هو الشوق ينزع به إلى الدفء يتلمسه من جسم امرأته في الليل، حتى الصباح، وقد عاد لا يدفعه إلا الرهق حتى يأوى إلى قطعة من الأرض ألفها ويؤوب إلى حضن أنثاه، ينشد ليلة راحة، حتى الصباح.

